د / يونس احمد السامرائي
كلية الآداب - جامعة بغداد

ابن بسام
حياته وشعره

اسمه وكنيته ولقبه :

هو علي بن محمد (١) بن نصر بن منصور بن بسام (٢) كنيته ابو الحسن (٣) اما لقبه فعرف باكثر من واحد ، من ذلك البسامي نسبة الى جده (بسام) . جاء في اللباب : (البسامي : بفتح الباء الموحدة والسين المهملة : المشددة بعدها الألف وفي آخرها الميم : هذه النسبة وهو اسم الجد ابي الحسن علي بن محمد بن منصور بن نصر الشاعر البسامي (٤) ومنه العبرتائى (٥) نسبة الى عبرتا وهي قرية كبيرة من اعمال بغداد من نواحي النهروان بين بغداد وواسط ...) (٦) وهي نسبة على غير قياس ، والافالنسبة القياسية اليها (العبرتي) (٧) . ومنه : الكاتب (٨) والبغدادي (٨) ، كما عرف كثيراً بأبن بسام . (١٠)

ولادته

لم تنشر مصادر ترجمة ابن بسام الى الى مسقط رأسه ، ويلوح لنا انه ولد في (عبرتا) التي نسب اليها.

١ - في البداية والنهاية ١١ / ١٢٥ (احمد) وهو تحريف للدكتور قحطان التميي بحث في (علي ابن بسام)

٢ - ينظر : معجم الشعراء ١٥٤ والفهرست٢٢٠ ، ٢٤٤ ، ونهاية الاول ٣ /١٠٢ وفوات الوفيات ٣ / ٩٢ وجاء في مصادر اخرى (علي بن محمد بن منصور بن بسام) ينظر : تاريخ بغداد ١٢ / ٦٣ ، واللباب ١ / ١٢١ ووفيات الاعيان ٣ / ٢٦٣ وغيرها .

من الجدير بالذكر ان هناك سميا لعلى هذا وهو (علي ابن بسام الشنتريني الاندلسي ، ابو الحسن وهو اديب من الكتاب الشعراء من شنترين في غربي الاندلس . اشتهر بكتابه (الذخيرة في محاسن الجزيرة) . توفي سنة ٥٤٢ هـ) (الاعلام ٥ / ٧٢)

ومما ينبغي ذكره انه على الرغم من التشابه بين اسمس الرجلين وكنيتيهما ، فليس هناك اختلاط او لبس وقع ترجمتيهما او نتاجيهما .

٣ - ينظر : معجم الشعراء ١٥٤ ، والوزراء ٧٧ ، ومعجم الادباء ١٤ / ١٣٩ ، وجاءت الكنية (ابا الحسين) في معجم الادباء ١٤ / ١٤٧

٤ - ١ / ١٢١ ، وينظر : الاغاني ١٨ / ٣٢٩ ، ومرآة الجنان ٢ / ٢٣٨ - ٢٣٩

٥ - معجم الادباء ١٤ / ١٣٩

٦ - معجم البلدان ٤ / ٧٧ - ٧٨

٧ - ينظر المصدر السابق . والجدير بالذكر ان هذه النسبة جاءت في بعض المصادر (العبرتاني) ينظر : معجم الشعراء ١٥٤ وربيع الابرار ٣ / ٦٧٥ او (العبرتابي) ، ينظر ، ربيع الابرار ٢ / ٤٦٢

اما سنة ولادته فلم تشر كذلك مصادر ترجمته القديمة الى ذلك ، ولكن بعضها اشار الى تقدير عام لمدة عمره من خلال ذكر سنه وفاته جاء في معجم الادباء : (مات علي بن محمد بن بسام في صفر سنة اثنتين وثلاثمائة عن نيف وسبعين سنة)[1] . واذا علمنا ان النّيف الزيادة وانها من واحدة الى ثلاث [2] ، فتكون ولادته في سنة ٢٣٠ هـ او ٢٣١ هـ[3] .

اسرته :

اكبر الظن ان الشاعر ينتمي الى نسب عربي ، ولعل هجاءه احد امراء بغداد في وقته دليل على هذا فقد قال فيه

واميرٍ أعجميّ كحمار ابن حماره[4]

وتقدم سرد نسبه وانتهاؤه الى (بسام) وهو جده الثالث الذي عرفت به الأسرة ولكن مصادر ترجمة الشاعر تم ذكر شيئاً عن (بسام) هذا سوى انتهاء نسب الشاعر به كما تقدم . غير انها المحت الى امور اخرى تتعلق باسرة الشاعر نرى من المفيد التحدث عنها في هذا الصدد .

فأبوه محمد كان - كما نعتته بعض المصادر رجلاً ، متخصصاً في هيئته ومطعمه وملبسه وتجمل داره)[5] (نبيل المركب ظريف الغلمان[6] .

ولعل ماذكره المسعودي في مروجه خير مايمثل ماكان عليه الرجل من هذه الصفات ، قال في اعقاب تمثله بنماذج من شعر ولده على يصف والده فيها بالشح والبخل وقلة المروءة :

(وقد كان أبوه محمد بن نصر بن منصور في غاية السرور والمروءة ، وكان رجلاً مترفاً ، حسن الزي ، ظاهر المروءة ، مشغوفاً بالبناء .

وذكر ابو عبد الله القمي قال : دخلت عليه يوماً شاتياً شديد البرد ببغداد ، فاذا هو في قبّة واسعة قد طلبت بالطين الاحمر الارمني ، وهو يلوح بريقاً ، فقدرت ان تكون القبة عشرين ذراعاً في مثلها ، وفي وسطها كانون [7] بزرافين[8] اذا اجتمع ونصب كان مقداره عشرة اذرع في مثلها ، وقد ملئ جمر الغضى ،

١ - ١٤ / ١٤٠ . وانظر : الوفيات ٣ / ٣٦٥ ، فقد تبع مؤلفه ياقوتا في هذا

٢ - القاموس واللسان

٣ - ممن جعل سنة ولادته (٢٣٠ هـ) الزركلي ٥ / ١٤١

٤ - مروج الذهب ٤ / ٢٠٨

٥ - الوفيات ٣ / ٣٦٤

٦ - شرح المقامات ٣ / ٢٢٦

٧ - الكانون : الموقد

٨ - الزرافين : جمع زرفين : حلقة الباب ومنه زرفن صدغه .

٩ - الجام : اناء للشرب والطعام من فضة او نحوها

وهو جالس في صدر القبة ، عليه غيلاله تسترية ، ومافضل عن الكانون مفروش بالديباج الاحمر ، فأجلسني بالقرب منه ، فكدت اتلظى ، فدفع الى جام[1] ماء الورد ، وقد مزج بالكافور ، فسوت به وجهي . ثم رايته قد استقى ماء ، فأتوه بماء رايت فيه ثلجاً ، فلم يكن لي وكد الاقطع مابيني وبينه . ثم خرجت من عنده الى برد مائع ، وقد قال لي لايصلح هذا البيت لمن يريد الخروج منه .

قال : ودخلت عليه في بعض الايام وهو جالس في موضع آخر في داره ، وقد رفعه على بركة ، وفي صدره صفة [1] وهو يشرف منها على البستان ، وعلى حير[2] الغزلان ، وحظيرة القماري واشباهها ، فقلت له : ياابا جعفر ، انت والله جالس في الجنة قال : فليس ينبغي لك ان تخرج من الجنة حتى تصطبح فيها ، فما جلست واستقربي المجلس حتى اتوه بمائدة جزع[3] ، لم ات أحسن منها ، وفي وسطها جام ، جزع ملونة ، قد لوى على جنباتها الذهب الاحمر ، وهي مملوءة من ماء ورد ، وقد جعل سافاً على ساف ، كهيئة الصومعة من صدور الدجاج ، وعلى المائدة سكرجات[4] جزع فيها الاصباغ و انواع الملح ، اتينا بسنبوسق[5] يفور وبعده جامات اللوزينج[6] ، ورفعت المائدة ، وقمنا من فورنا الى موضع الستارة ، فق م بين ايدينا اجانة[7] صيني بيضاء قد كومت بالبنفسج والخيري[8] ، واخرى مثلها قد عبئ فيها التفاح الشامي قدرنا مقدارما حضر فيها الف تفاحة فما رأيت طعاماً انظف منه ولاريحاناً اظرف منه ، فقال لي : هذا حقّ الصبوح فما انسى الى الساعة طيب ذلك اليوم .

قال المسعودي : وانما ذكرنا هذا الخبر عن محمد بن نصر ليعلم ان علي بن محمد ابنه اخبر عنه بضد ماكان عليه)[9]

١ - الصفة : الظلة ، والبهو الواسع العالي السقف

٢ - الحير : شبه الحظيرة

٣ - الجزع : ضرب من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الالوان ، والحجر في جملته بلون الظفر .

٤ - السكرجات : جمع سكرجة اناء صغير يؤكل فيه الشيْ القليل من الأدم وكل مايوضع فيه الكوامخ ونحوها على المائدة حوله الاطعمه للتشهي والهضم جمع سكارج .

٥ - السنبوسق : فطائر مثلثة تعمُل من رقاق العجين المعجون بالسمن وتحشى بقطع اللحم والجوز .

٦ - اللوزينج : من الحلواء ، شبه القطائف تؤدم بدهن اللوز .

٧ - الاجانة : إناء تغسل فيه الثياب ،

٨ - الخيري : نبات له زهر ، وغلب على اصفره لانه الذي يستخرج دهنه ويقال للخزامى : خيري البر لانه ازكى نبات البادية .

٩ - مروج الذهب ٤ / ٢١١ - ٢١٢

ولابن الرومي قصيدة في رثاء محمد هذا نعته فيها بالكرم والفضل والتدين ، واثار الى داره وبستانه وماتركه وخلفه من آثار بعده[١٠] .

غير ان في ديوان البحتري مقطوعتين في محمد هذا تصفانه بالبخل واللؤم وعدم لاحتفال بالثناء[١] . والجدير بالذكر ان المصادر التي ذكرت محمداً هذا لم تشر الى ماكان يقوم به من اعمال .

وأمه . (امامة) ابنة حمدون بن اسماعيل النديم[٢] .

وحدة : (نصر) ، كان من مقربي المأمون ، وكان المأمون يتفاءل به ، فكان سبب مكانته عنده[٣] . كما ولاه المعتصم ديوان الخاتم والنفقات والازمة[٤] ، وقيل انه كان السبب في نكبة الفضل بن مروان وزير المعتصم في سنة ٢٢٠ هـ[٥] . ويظهر انه اصبح ذا مكانة اجتماعية مرموقة فاتخذ له كاتباً[٦] وقصده الشعراء مسترفدين كأبي تمام ودعبل فمدحه الاول بقصيدة اشاد فيها بكرمه وحسن خلقه ودماثة طبعه[٧] وهجاه الثاني لقعوده عن قضاء حاجته ، ، وشمل هجاؤه آل بسام كلهم ، فنعتهم بالبخل ، وعثانينهم بالمخالي ، واشار الى جهامة وجوههم وغلظها ، وعبوسها في السؤال ، وعطلها من الحسن والجمال .[٨] .

١٠ – ينظر : ديوان ابن الرومي ١٩٦١ – ١٩٦٤ ، وشرح ، المقامات ٣ / ٢٢٦

١ – ينظر : ديوان البحتري ٢٣٧ ، ٢٢٨٣

٢ – ينظر معجم الشعراء ١٥٤ والفهرست ٢٢٠ ومعجم الادباء ١٤ / ١٤٠

٣ – ربيع الابرار ٣ / ٤٤٠

٤ – ينظر معجم الادباء ١٤ / ١٤٠

٥ – ينظر : المصدر السابق . وجاء في تاريخ الطبري حوادث سنة ٢٢٠ هـ في صدد غضب المعتصم على افتيل : (فضل : ان اوّل ماحدثه في امره حين تغيّر له ان صير احمد بن عمار الخراساني زمّاماً عليه في نفقات الخاصة ، ونصر بن منصور بن بسام زماماً عليه في الخراج وجميع الاعمال ، فلم يزل كذلك ...)

٦ – ينظر : معجم الشعراء ٣٧٩ ، والوافي بالوفيات ١ / ٣٣٥

٧ – ديوان ابي تمام ٢ / ٥٩ ، وينظر : وفيات الاعيان ٣ / ٣٦٥

٨ – ينظر : شعر دعبل ١٧٦ ، والاغاني ٢٠ / ١٤٣

وجد ابيه (منصور) ، واخو جد ابيه (الحسن) جاء ذكرهما مع جده (نصر) في خبر حدث لهم مع الرشيد نرى من المفيد اقتباسه في هذا الشأن لما ينطوي عليه من الطرافة ، ولما يمثله من حالة آل بسام الاجتماعية والاقتصادية في عهد الرشيد .

جاء في الوزراء والكتاب : (قال مخلد : كان انسان يقال له : صلت ، منقطعاً الى منصور بن بسام ، وكان يحسن اليه ، وينظر له ، و طالت ايامه في خدمته الى ان استبطأ منصوراً في وقت من الاوقات ، كان منصور فيه مضيقاً ، لم يمكنه بره ، فاحتال صلت بقوم من اعداء منصور ، حتى او صلوه الى الرشيد ، فاعلمه ان منصوراً واصحابه اخذوا من امواله عشرين الف الف درهم ، وانها في منازلهم ، فقال له الرشيد : ان كنت صادقاً أحسنا اليك ، وان كنت كاذباً صلبناك حياً ثلاثة ايام ، فشرط ذلك على نفسه ، ووجه الرشيد سراً برشيد الخادم واخشيدو مسرور وعدة من الخدم ، الى منازل آل بسام جميعاً ببغداد ، وامر حين وجه الخدم الى منازلهم بحبس منصور بن بسام ونصر بن منصور والحسن بن بسام ، المعروف بابي الحسين ، وفرق بينهم . وصار الخدم الى منازلهم فقتشوها ، فلم يجدوا فيها مالاً ، وكان لابي الحسين عند امراته خمسة الاف دينار في قمقم ، فلما هجم الخدم عليهم رمت به جاريتها في بئر ماء ، فلما اراد الخدم الانصراف سالت المرأة جاريتها عن القمقم فأعلمتها انها طرحته في البئر فخافت ان يكون زوجها قد اقر بالمال ، فاذا لم يوجد توهم انهم احتالوا وتر سائر اموالهم فأرسلت الى الخادم ، فأخبرته بما فعلت الجارية ، فاستخرج القمقم من البئر ، وحمله معه ، فلما صار الخدم الى الرشيد اخبروه انهم لم يجدوا مالاً ووصف له احدهم خبر المرأة والجارية والقمقم ، وقد كان استحلف منصوراً ونصراً وابا الحسين على اموالهم ، فحلفوا انه لامال عندهم غير ابي الحسين فانه ذكر له ان عند امراته خمسة آلاف دينار ، فأمر لمنصور عند رجوع الخدم بخمسين الف درهم ، لابي الحسين بثلاثين الف درهم ولنصر بعشرين الف درهم ورد القمقم على ابي الحسين ، وصلب صلتا بباب الجسر ثلاثة ايام ، ينزل به في كل وقت صلاة ، ويرد الى الخشبة[1] .

ومن ابناء اسرة آل بسام (جعفر) وهو عم علي الشاعر المنزجم[2] .

ومن اخوة الشاعر (جعفر) ويكن بأبي العباس (٣) ، وكان محمد بن نصر يكن بابي جعفر هذا[4] ولعله كان اكبر من علي . وذكرت بعض المصادر ان علياً هجا اخاه وكان يلقب بالثلج[5] ، فهل كان المراد به جعفراً هذا ؟

١ - الوزراء والكتاب ٢٦٤ - ٢٦٥

٢ - ينظر : مروج الذهب ٤ / ٢١١ ، وحماسه الظرفاء ٢ / ١٣٣ وفيه ان الشاعر هجا عمه ولم يسمه

٣ - ينظر : شرح المقامات ١ / ١٩٨

٤ - ينظر وخص الخاص ١٣٦

٥ - تاريخ بغداد ٤ / ٣١٣

وللشاعر بن اسمه (احمد) ، ذكره الخطيب وقال عنه : (حدث عن الهيثم بن خلف الدوري . روى عنه عبد الملك بن ابي سعد الوراق)[٦] .

ومن ابناء عمه ، محمد بن جعفر ، وللشاعر فيه هجاء ايضاً [٧] .

وجده لامه - كما تقدم - حمدون بن اسماعيل النديم . ومن الجدير بالذكر ان بني حمدون اشتهروا في العصر العباسي بالمنادمة ، وذكرت المصادر عدداً من ابناء هذه الاسرة ، منهم : حمدون بن اسماعيل بن داود بن حمدون ، وهو اول من نادم من اهله ، وكان ينادم المعتصم ، ثم الواثق بعده فنفاه الى الاهواز ، ثم المتوكل وضربه ثلاثمائة سوط ونفاه الى السند ثلاث سنين .

وابنه ابو عبد الله احمد بن براهيم بن اسماعيل بن حمدون النديم : كان من شيوخ اهل اللغة ووجوههم ، واستاذ ثعلب ، قرأ عليه قبل ابن الاعرابي ، وتخرج من يده وكان خصيصاً بالمتوكل ونديماً له وانكر منه المتوكل ما اوجب نفيه الى تكريت وقطع اذنه ثم اعاده الى خدمته ، وكان شاعراً صاحب مؤلفات .

ومحمد بن حمدون ، ومولده في سنة ٢٣٧ هـ ، نادم المعتمد وخص به ، وكان من ثقاته المتقدمين عنده ، وله معه أخبار ، توفي في ببغداد في رمضان سنة تسع وثلاثمائة . وابو العبيس بن ابي عبد الله بن حمدون ، احد المشهورين بجوده الغناء ، والصنعه فيه ، وابنه ابراهيم بن ابي العبيس ايضاً من المجيدين في الغناء ، وشجاء الصوت ، فهؤلاء المعروفون بمنادمه الخلفاء من بني حمدون النديم)[١] .

واشار بعض مترجمي ابن بسام الى خاله فقال ابو الفرج : (وذكر علي بن محمد بن نصر البسامي ان خاله ابا عبد الله بن حمدون بن اسماعيل قال ...) [٢] ، كما قال على لسان ابن بسام : (حدثني خالي حمدون قال ...)[٣] . وقال المرزباني : (وله مع خاله ابي عبد الله احمد بن حمدون أخبار)[٤] ، وقال ياقوت نقلاً عن المرزباني : (وله مع خاله ابي عبد الله حمدون أخبار) [٥] .

وواضح من هذه النصوص انها جعلت خاله (ابن حمدون) ، فهل كان هذا من باب التغليب ، لاشتهار الاسرة بعميدها (حمدون) ، وان الصحيح هو ابو عبد الله احمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن حمدون كما تقدم ؟

٧ - ينظر : مروج الذهب ٤ / ٢١١

٨ - في معجم الادباء ٢ / ٢٠٩ (ابراهيم بن اسماعيل بن داود) ويظن ياقوت ان ابراهيم هذا هو الملقب (حمدون) .

١ - شعر ابن المعتز ١ / ٦٨٩ - ٦٩٠ عن : الفهرست ٢١٣ ومعجم الادباء ٢ / ٢٠٤ - ٢١٨

٢ - الاغاني ١٨ / ٣٢٩

٣ - نفسه ١٠ / ١٣ - ١٤

٤ - معجم الشعراء ١٥٤

٥ - معجم الادباء ١٤ / ١٣٩

نشأته وحياته

نشأ في بغداد في رعاية ابيه الذي كان - كما تقدم - ذا مركز اجتماعي جيد ، ويظهر انه لم يكن الولد الوحيد وانما كان له اكثر من اخ [٦]وان كنا كما سلف ذكرنا واحداً من اخوانه .

ولاشك في ان الشاعر قضى شطراً من حياته متمتعاً بالاطايب والمسرات ، ففي شعره اشارات الى مثل هذه الحياة ، منها قوله :

وكانت بالصراة لنا ليال سرقنا هنّ من ريْب الزمّان

جعلنا هنّ تاريخ اللّيالي وعنوان المسرة والأماني

[١] كما نال قطاً وافراً من حياة العبث واللهو والمجون ، ولعل مما ساعده على هذا المجالس التي كان يحضرها جامع ابناء اسرته من بني حمدون (٢) . كما ان اخبار ابيه تشير - كما تقدم - الى شئ مما كان يجري في مجالسه من التمتع بالملذات من شرب وسماع .

وفي شعره مايشير الى مثل الحياة اللاهية العابثه الماجنة ، كقوله :

خل عني لست من اربي اربي في الكاس والطرب

دونك العذب الزلال ولي سعة في صفوة العنب[٣]

ويبدو انه اقصر عن هذه الحياة بعد ان امتدبه العمر ، وعلا راسه المشيب ، فهو يقول : اقصرت عن طلب البطالة والصّبا لما علاني في المشيب قناع[٤]

ولم تذكر اخبار ابن بسام التي وصلت الينا ماكان يقوم به من اعمال ، اللهم الاانا استثنينا الخبر الذي اشار الى توليه البريد . قال المسعودي :

(وما كان من قوله في القاسم بن عبيد الله ودخوله الى المتحضر ، وهو يلعب بالشطرنج ويتمثل بقوله على بن بسام :

حياة هذا كموت هذا فليس تخلو من المصائب

٦ - ينظر : معجم الادباء ١٦ / ٢١٧

١ - وفيات الاعيان ٢ / ٣٦٤ ، وانظر زهر الآداب ٦٨٩ للوقوف على مثال آخر

٢ - ينظر : معجم الادباء ١٤ / ١٤٩

٣ - محاضرات الادباء ٦٧٦/٢

٤ - معجم الادباء ١٥٠/١٤

فلما شال راسه نظر الى القاسم فاستحيا ، فقال : ياقاسم ، اقطع لسان ابن بسام عنك فخرج القاسم مبادراً لقطع لسانه ، حتى قال له المعتضد : بالبّر والشغل ولاتعرض له بسوء فولاه القاسم البريد والجسر بجند قنسرين[٥] والعواصم[٦] من ارض الشام)[٧] ويظهر انه ظل متولياً البريد مّدة غير قصيرة ، امتدت الى ايام ابن الفرات في وزارته الاولى[٨]

جاء في معجم الادباء عن ابن مقلة :

(كنت احقد ابن بسام لهجائه إياي فخوطب ابن الفرات في وزارته الاولى في تصريفه ، فاعترضت وقلت : اذا صرف فلا يحتبس الناس على مجالسنا وقد افترقت ، فاذا لم يضره الوزير فلا اقل من الا ينفعه ، فامتنع من تصريفه قضاء ففي ، فبلغ ذلك ابن بسام فجاءني وخضع لي ثم لازمني نحو سنة حتى صار يختص بي ويعاشرني على البريد ..)[١]

ثقافته :

نشأ ابن بسام - كما تقدم - في رعاية ابيه الذي هيأله من يثقفه ويأخذ عنه العلوم والمعارف التي كانت شائعة آنذاك ، ولاسيما الشعر والآدب والنحو والأخبار و ما الى ذلك ووقفنا من اخباره على بعض مؤدبيه ومعلمية الذين تتلمذلهم ، وتأثربما كانوا يحسنونه من اصناف العلوم والمعارف . فمن اولئك المؤدبين الفضل ابن محمد اليزيدي[٢] الذي اضطلع بتعليه الشعر حتى تأدب وفهم ، جاء في معجم الادباء :

(حدث ابن ناقياء في كتاب ملح المالحة ، : قال الفضل بن محمد اليزيدي كان محمد بن نصر بن منصور بن بسام الكاتب اشترى منزلاً وآلة وطعاماً وعبيداً ، وكان ناقص الادب ، وكنت احتلف الى ولده عبد الله بن اسحاق بن ابراهيم ليقرؤا عليّ الاشعار ، وكان عبد الله بن اسحاق سرياً جاهلاً ، فدخلت يوماً الستارة مضروبة ومحمد بن بسام وعبد الله بت اسحاق يشر بان واولادهما بين ايديها وكانوا قد تأدبوا وفهموا .

٥ - قنسرين : مدينة بينها وبين حلب مرحلة ، مندثرة .

٦ - العواصم : حصون موانع ودلاية تحيط بها بين حلب وانطاكية ، وقصبتها انطاكية .

٧ - مروج الذهب ١٤ / ٢١٣ ، والوفيات ٣ / ٣٦٤ ، وينظر : معجم الادباء ١٤ / ١٥٢ وفيه عن زنجي الكاتب : (حدثني ابن بسام قال : كنت اتقلد البريد (بقلم) في ايام عبيد الله بن سليمان والعامل بها ابو عيسى احمد بن خالد...)

٨ - كانت وزارته الاولى في سنة ٢٩٦ هـ وامتدت الى سنة ٢٩٩ هـ (اعلام ٥ / ١٤١)

١ - معجم الادباء ١٤ / ١٤٨

٢ - احد الرواة العلماء والنحاة النبلاء ، اخذ عنه العلم الكثير ، ورواه من جهته الحجم الغفير ، كانت وفاته في سنة ٢٧٨ هـ (معجم الادباء ١٦ / ٢١٥

ففي بشعر جرير :

ألاحيّ الديار بسعد اني أحب لحّب فاطمة الديارا

فقال عبد الله بن اسحاق : لولا جهل الاعراب ماكان ذكر لسعد منها . فقال محمد بن بسام : لاتفعل ياأخي فانه يقوى معدتهم ويصلح اسنانهم قال الفضل اليزيدي فقال لي علي بن محمد بن نصر : با الله ياأستاذ ، اصفعها وابدا بأبي . قال المؤلف اراد بعد بسعد اسم موضع معروف)[٣]

وممن تأثر بعلومهم ومعارفهم - ولعله اتصل بهم ، وتتلمذلهم ، فروى عنهم بعض الاخبار في كتابة (اخبار عمر بن ابي ربيعة) - محمد بن حبيب[٤] ، وسليمان بن ابي شيخ [٥] والزبير بن بكار[١] ، والخراز[٢] ، وعمر بن شبه[٣] ، وحماد بن اسحاق الموصلي[٤] ويعقوب بن شيبه[٥]

وكان لجده حمدون النديم وخاله احمد بن حمدون اثر واضح في حياته كما تقدم - تقدم - وفي نزوده مها ببعض ماكان يحسنانه من رواية الاخبار ، وطرافه الآداب ، فروى عن جدّه عدة اخبار تتعلق بالمأمون والواثق وسواهما ، وكلها تتصل بالغناء والالحان المشهورة[٦] وروى عن بعض الاخبار المتعلقة بالمتوكل وابنية : المعتز والمنتصر [٧] ، وبالشاعر الحسين الضحاك وبعض شعره[٨] .

٣ - ١٦ / ٢١٧ ، وينظر ادب الكتاب ١٧١ ، وجمع الجواهر ١٢١ - ١٢٢ ، وديوان جرير ٢٨٠

٤ - علاقة بانساب والاخبار وللغة والشعر ... مؤدباً توفي سنة ٤٤٥ هـ (الاعلام ٦ / ٣٠٧

٥ - سكن بغداد . كان عالماً بالنسب والتواريخ وايام الناس واخبارهم ، ، توفي سنة ٢٤٦ هـ (تاريخ بغداد ٩ / ٥٠) .

١ - من احفاد الزبير بن العوام ... عالم الانساب واخبار العرب راوية ، توفي سنة ٢٥٦ هـ (الاعلام ٣ / ٧٤ ٩ .

٢ - مؤرخ من اهل بغداد ... توفي سنة ٢٥٨ هـ (الاعلام ١ / ١٠٤) .

٣ - شاعر راوية ، مؤرخ ، حافظ للحديث ، توفي سنة ٢٦٢ هـ (الاعلام ٥ / ٢٠٦) .

٤ - اديب رواية ، شارك اباه اسحاق في كثير من سماعة ، ولحق بكبار مشايخة أخذ اكثر علم ابيه (الفهرست ٢١٠) .

٥ - بصري ، نزل بغداد ، من كبار علماء الحديث ، كان يتفقه على مذهب الامام مالك ، توفي سنة ٢٦٢ هـ (الاعلام ٩ / ٢٦١) .

٦ - ينظر : الاغاني ٨ / ٣٦٦ ، ٩ / ٢٩٧ ، ١٠ / ١٢٠ ، ١٩ / ٢٤٥

٧ - ينظر : الاغاني ١٨ / ٣٢٩

٨ - ينظر : معجم الادباء ١٠ / ١٣ - ١٤

اصبح ابن بّسام بفضل اولئك المؤدبين والعلماء ذا ثقافة جيدة متنوعة كان لها اثرها البعيد في ترشحه ليكون مؤلفاً جيداً ، وشاعراً قديراً ، ومصدراً موثقاً للاخذ عنه . وفي اخباره غير واحد ممن روى عنه اخباراً متنوعة منهم :عم ابي الفرج الاصفهاني[٩] ومحمد بن يحيى الصولي[١٠] وزنجي الكاتب[١١] ، وابو سهل بن زياد وغيرهم[١٢] .

هذه الثقافة الواسعة المتشعبة هي التي حملت بعض مترجمية المحدثين على القول فيه :

(من الكتاب عالم بالأدب والاخبار [١٣]

صفاته

لم تتحدث مصادر ترجمة ابن بسام عن صفاته الخلقية ، ومن اجل هذا سنحاول تلمس

بعض هذه الصفات من خلال الاشارات الواردة في بعض مانسب اليه من شعر ، او ماقيل في اسرته عامة معتبرين شموله بهذه الاوصاف بحكم الوراثة والعادة المتبعة آنذاك مع اننا نحس بان الحكم في مثل هذه الحالة قد لايكون دقيقاً .

تقدم هجاء بعض الشعراء لآل بسام ووصف حواجبهم وعتانينهم ووجوهم ، فهل كانت هذه الصفات او بعضها مما شمل به الشاعرر ايضاً .

وفي شعر ابن بسام مايشير الى انه كان اصفر اللون شديدة ، ولاندري ان كانت هذه الصفرة بسبب الوراثة ايضاً ، او انها بسبب مرض أصيب لشاعر به . قال في وصف ابريق :

ابريق وصف كأنه قبس يشبه لوفي بفرط صفرته[١]

وفي شعره ايضاً - كما تقدم - مايدل على ان الشيب قد مشى في شعره فكان له قناعاً كما يمكن الوقوف على بعض صفاته الخلفية من خلال بعض اخباره وشعره ايضاً .

ولعل في طليعة هذه الصفات (التمرد) على ذكل شيْ ، ويبدو انه بدا معه منذ صباه ، وان هذا التمرد انسحب على امور اخرى وبقي ملازماً للشاعر طوال حياته ، واتخذ الواناً مختلفة ، وخاصة في علاقاته مع المجتمع وابنائه .

٩ - ينظر : الاغاني ٢٩٧/٩ ، ١٢٠/١٠ ، ٢٤٥/١٩/

١٠- ينظر : تاريخ بغداد ١٢ / ٦٣ ، ومعجم الادباء ١٠ / ١٣

١١ - ينظر : معجم الادباء ١٤ / ١٥٢

١٢ - ينظر : تاريخ بغداد ١٢ / ٦٣

١٣ - الاعلام ٥ / ١٤١

ومضى خبر يتعلق بوالد الشاعر واحد اصدقاءِ وتعليقها على بيت شعره كان غني به في مجلسها مما دلعلى قلة فهمها لماورد فيه ، فعقب ابن بسام وكان بيا يتلقي العلم على ماسمعه وطلب الى مؤدبه ان يصفعها وان يبدأ بابيه ان هذا الطلب الذي لايخلو من الغرابة والذي يدل على امور كثيرة اهمها : قلة احترام الولد لوالده ، وتمرده على الاعراف والتقاليد التي تحتم احترام الولد لابيه وتقديره له ، ولعل هذا الذي بدر منه كان الامارة الاولى لتمرده بعد ذلك على اهلة خاصة والمجتمع عامة الذي اتصف بالحدةّ في طبعة والميل الى النيل من كل احد ابتداء من ابيه وسائر ابناء اسرته الى كل من اتصل بهم من ابناء المجتمع دون مراعاة لسن او منزلة اوفضل .. وهذا التمرد هو الذي سوغ له الانصراف الى الغواية والمجون . وفي اخباره وشعره اشارات الى مثل هذا الامر :

حدث الصولي عن ابن بسام نفسه انه قال : (كنت اتعشق خادماً لخالي احمد بن حمدون فقمت ليلة لادب اليه ، فلما قربت منه لسعتني عقرب فصرخت فقال خالي : ماتصنع هاهنا ؟ فقلت : جئت لأبول فقال : صدقت ولكن في غلامي ، فقلت لوقتي :

ولقد سريت مع الظلام لموعد حصلتة من غادر كذاب
فاذا على ظهر الطريق سوداء قد عرفت اوان ذهابي
لابارك الرحمان فيها عقرباً دبابة دبت الى دباب

١ ـ محاضرات الادباء ٢/ ٧١٢

فقال خالي : فبحك الله ، لو تركت المجون يوماً لتركته في هذه الحال)[١] . وفي شعره ايضاً نماذج تشير الى احتسائه الخمر والميل الى اللهوء والطرب كقوله :

حّل عن لست من اربي أربي في الكأس والطرب
دونك العذب الزلال ولي سعة في صفوة العنب[٢]

ولعل هذا التمرد هو الذي اكسبه جراة قّل ان نجدلها مثيلاً لدى سواه من الشعراء ، فكان في جراته وصراحته واقدامه نسيج وحده ، بل كان يعد ظاهرة تكاد تكون غريبة في العصر كله ، ولحظ غير واحد من متر جمية هذه الجراة فيه ، ومن اجل هذا قيل عنه : (وكان .. لسناً مطبوعاً في الهجاء لم يسلم منه امير ولاوزير ولاصفير ولاكبير ، وهجاء اباه وإخوته وسائر اهل بيته)[٣]. غير ان اهم ماتمثلت به جراته واقدامه على رثاء ابن المعتز الذي قتل في ظروف سياسية ضاغطة اسكتت الكثيرين عن ان يقوّلوا شيئاً في الخلفية المقتول الذي كان في يوم من الايام احد من هجاهم ابن بسام هذا .

لله درّك من ميت بمضيعةٍ ناهيك في العلم والآداب والحسب
مافية لوّ دلا ليت فتنقصة وانما ادركته حرفة الادب[٤].

وفـــاتـــة :

ذكر بعض مترجمية ان وفاته كانت في سنة ٣٠١ هـ هو[٥] ، وذكر اخرون انها كانت في سنة ٣٠٢ هـ[٦] ،في حين ذهب بعض آخرون الى انها كانت في سنة ٣٠٣ هـ[٧] .

علاقته برجال العصر وأدبائه :

ان ادق عبارة تحدد صلة ابن بسام بابناء مجتمعة هي التي ذكرها المسعودي في حقه قال : (وكان شاعراً لسناً ، مطبوعاً في الهجاء ، لم يسلم منه وزير ولا امير ولا صغير ولاكبير ، وله هجاء في ابيه واخوته : وسائر اهل بيته)[٨]

١ - معجم الادباء ١٤ / ١٤٩ - ١٥٠ ، وينظر مثل هذا المجون المتمثل بشذوذه وميلة الى الجنس الآخر : محاضرات الادباء ٢ / ٢٤٤

٢ - محاضرات الادباء ٢ / ٦٧٦ ، وانظر : نماذج آخرى في : التحف والهدايا ١٤٢ ديوان العاني ٢ / ٢٣٤ ، والبصائر الذخائر ٣ / ١١١ ، وقطب السرور ٣٧٤ ، ٦٣٦ ، ٧١٠

٣ - وفيات الاعيان ٣ / ٣٦٣

٤ - شعر ابن المعتز القسم الثاني ٩٥

٥ - ينظر : مرآة الجنان ٢ / ٢٣٨

٦ - ينظر : معجم الشعراء ١٥٤ ، وتاريخ بغداد ١٢ / ٦٣ ووفيات الاعيان ٣ / ٣٦٥ وفيه ان وفاته كانت في صفر ، واللباب ١ / ١٢١ ومعجم الادباء ١٤ / ١٤٠ وفوات الوفيات ٣ / ٩٢

٧ - ينظر : مروج الذهب ٤ / ٦ ٢٠٦ ، ووفيات الاعيان ٣ / ٣٦٥ ، والنجوم الزاهرة ٣ / ١٨٩ وهديو العارفين ٦٧٥

٨ - مروج الذهب ٤ / ٢٠٦ وانظر : الفهرست ٢٢٠

فعلاقته الشاعر كانت علاقة توتر وتأزم بينه وبين ابناء مجتمعة ، وبدا هذا التوتر بأقرب الناس رحماً اليه ، وهو والدة واخوته وسائر اهل بيته فنال منهم بهجائه وسلقهم بسلاطة لسانه وقبيح الفاظه ، ومن اجل هذا نعته بعضهم بقوله (وهو معدود في العققة [١] ، كما نال منه بعض من هاجاه من الشعراء مشيراً الى صلة الرحم هذه التي لم يرع لها الشاعر حرمة ولاحفظ لها ذمة فقال فيه :

من رام هجو علي فشعر قدهجاه
لوانه لابيه ماكان يهجو اباه [٢]

ومما يسترعي النظر حقاً خلو اخبار الشاعر او شعره من الاشارة الى صديق واحدله سواء كان من الادباء والشعراء اومن رجال الحكم او سواهم كان يركن اليه فيبثه مافي نفسه او يحفظ له مودة وصداقة ، وهو بهذا السلوك من الحياة يكاد يكون نمطاً لامثيل له فيما نحسب في الدنيا العلاقات بين الناس ! بل ان مثل هذا النموذج الفريد الشاذ ليحملنا على الشك في ان يكون له اتجاه في

الحياة معين ، او مذهب خاص يؤمن به ويدافع عنه[٣] .

مـؤلـفـاتـــة

ذكرت بعض المصادر عدداً من المصنفات المنسوبة الى ابن بسام ، وهي :

١- اخبار عمر بن ابي ربيعة :

ذكره ابن النديم وقال فيه (ولم ارفي معناه ابلغ منـه)[٤] ، وذكره يـاقوت واشـار الى من روى عنهم المؤلف من اخبار فقال :

(كتاب عمر بن ابي ربيعة) جيد بالغ قي معناه ، وجوت ! اخبار عمر بن ابي ربيعـة تصنيف علي بن محمد بن نصر بن منصور بن بسـام وقـد روى فيـه عن : الزبير بن بكار ، وعمر بن شبـة ، وحمـاد بن اسحـاق ، ويعقوب ابن ابي شيبه ، واحمد بن الحارث الخزاز ، ومحمد بن حبيب ، وسليمان بن ابي شيخ وخالـة احمـد بن حمدون)[٥]وذكره ابن خلكان فقـال فيـه (ولم يستقص احـد في بـابـه ابلغ منـه)016ap[٩] ، كما ذكره حاجي خليفة[٧] ، واسماعيل البغدادي ([٨] ، والزركلي[٩] .

١ - معجم الادباء ١٤ / ١٤٠

٢ - شعر ابن المعتز ١ / ٦٠٩

٣ - ينظر : معجم الشعراء ١٥٤

٤ - الفهرست ٢٢٠

٥ - معجم الادباء ١٤ / ١٤١

٦- وفيات الاعيان ٣ / ٣٦٦

٧ - كشف الظنون ٢٨

٨ - هدية العارفين ٦٧٥

٩ - الاعلام ٥ / ١٤١ ووضح ان الكتاب على رواية يـاقوت كان موجوداً في القرن السـادس الهجري ، مما حد بالحموى القول (وجدتُ) .

٢ - كتاب الزنجيين وهم المعاقرون !

جاء هذا الكتاب بهذا العنوان في الفهرست وهدية العارفين (٢) . . وجاء بعنوان (كتاب المعـاقرين) في : معجم الادباء (٣) والاعلام (٤) .

١ كتاب ديوان رسائلة

جاء ذكره في الفهرست (٥) ، ومعجم الادباء (٦) ، ووفيات الاعيان (٧) ، وهديـة العـارفين (٨) الاعلام (٩)

٤ – كتاب مناقضات الشعراء :

ذكره ابن النديم (١٠) وياقوت (١١) ، وابن خلكان (١٢) البغدادي [١٣] ، والزركلي[١٤]

٥كتاب اخبار الاحوص :

جاء ذكره في الفهرست [١٥] ومعجم الادباء[١٦] ووفيات الاعيان[١٧] وهدية العارفين[١٨]والاعلام[١٩]

والجدير بالذكر ان ابن خلكان قال في اعقاب ذكره لهذه المصنفات (وغير ذلك)[٢٠]

١ – ٢٢٠

٢ – ٦٧٥ وفيه (المعافرين) بالفاء ، تصحيف

٣ – ١٤ / ١٤١

٥ – ٢٢٠

٦ – ١٤ / ١٤١

٧ – ٣ / ٣٦٦

٨ – ٦٧٥ وفيه (ديوان الرسائل)

٩ – ٥ / ١٤١ وفية (ديوان الرسائل ٩ .

١٠ – ٢٢٠

١١ – معجم الادباء ١٤ / ١٤١ – ١٤٢

١٢ – الوفيات ٣ / ٣٦٦

١٣ – هدية العارفين ٦٧٥

١٤ – الاعلام ٥ / ١٤١

١٥ – ٢٢٠

١٦ – ١٤ / ١٤٢

١٧ – ٣ / ٣٦٦

١٨ – ٦٧٥

١٩ – ٥ / ١٤١

٢٠ – الوفيات ٣ / ٣٦٦

٦ - اخبار اسحاق بن ابراهيم النديم :

جاء ذكره في كشف الظنون[١] ، وهدية العارفين[٢] والاعلام وواضح ان المراد بكتابة هذا هو اسحاق بن ابراهيم الموصلي ، المغني المشهور والجديربالاشارةان هذهالمصقات مفقودة ولم يصل الينا واحد منها ، كا تنبغي الاشارة الى ان ابا الفرج اقتبس نصين في اغانية من كتاب لابن بسام هذاغيرانه لم يسمه ، والنصان هما :

ان ابراهيم بن المهدي سأل جماعة من اخوانه ان يصطبحوا عنده - قال حمدون :وكنت فيهم - وكان فيمن دعا مخارق (٤) ، فسار إليه وهو سكران لافضل فيه لطعام ولاشراب ، فاغتم لذلك ابراهيم وعاتبه على ماصنع ، فقال : لاوالله ايها الامير ، ماكان افتى الا سليم بن سلام ، فانه مرّ بي فدخل على فغناني صوتاً له صنعه قريباً فشربت عليه الى السحر حتى لم يبق في فضل واخذته ، فقال ابراهيم : فغنناه املالا (٥) فغناه :

اذا كنت ندماني مباكره مدامةً معتقة زفت الى غير خاطب اذا عتقت في دنها العام اقبلت تردي رداء الحسن في عين شارب - الغناء لسليم خفيف ثقيل مطلق في مجرى البنصر - قال فبعث ابراهيم الى سليم فأحضره ، فغناه اياه وطرحه على جواريه وامرله بجائزة ، وشربنا عليه بقية يومنا حتى صرنا في حالة مخارق في مثل احوالنا) (٦) .

٢ - قال ابو الفرج :

نسخت من كتاب علي بن محمد بن نصر بخطة ، حدثني يعني حمدون قال : كنا يوماً مجتمعين في منزل ابي عيسى بن المتوكل (٧) وقد عزمنا على الصبوح ومعنا جعفر (٨) بن المأمون

١ - ص ٢٥

٢ - ص ٦٧٥

٣ - ٥ / ١٤١

٤ - او آلمهنأ: امام عصره في فن الغناء ، ومن اطيب الناس صوتاً ، اتصل بالرشيد والمأمون وسواهما من الخلفاء ، توفي ، توفي في بسر من رائ سنة ٢٣١ هـ (الاعلام ٨ / ٦٨) .

٥ - املالاً : يريد : غننا إياه كا اخذته عنه من غير زيادة او نقص (حاشية الاغاني ٦ / ١٦٩)

٦ - ٦ / ١٦٩ - ١٧٠

٧ - (ابو عيسى محمد أمه خزر ، وكان فاضلاً ، قتله المعتضد ابن اخيه تغريقاً في دجلة)جمهرة انساب العرب ٢٧

٨ - كان ضمن اولاد المأمون . جمهرة انساب العرب ٢٤

وسليمان بن وهب (١) وابراهيم بن المدبر (٢) ، وحضرت عريب (٣) وشارية (٤) وجواريها ، ونحن في اتم سرور ، بدعة جارية عريب :

اعاذ لتي اكثرت جهلاً من العذل على غير شيٍ من ملامي وفي عذلي

لعريب ، فغنت عرفان :

اذا ارام قلبي هجرها حال دونه شفيعان من قلبي لها جدلان (٥)

والغناء لشارية ، وكان اهل الظرف والمتعاونون في ذلك الوقت صنفين : عريبيه وشارية ساكتتان لاتنطقان ، وكل واحدة من جواريها تغني صنعه ستها لاتجاوزها ، حتى غنت عرفان :

بأبي من زارني في منامي فدنا مني وفيه نفارُ

فأحسنت ماشاءت ، وشربنا جميعاً ، فلما امسكت قالت عريب لشارية : ياأختي لمن هذا اللحن ، قالت لي : كنت صنعته في حياة سيدي ، تعني ابراهيم بن المهدي ، وغنيته إياه فاستحسنه ، وعرضة على اسحاق وغيره فاستحسنوه ، فاسكتت (٦) عريب ، ثم قالت لابي عيسى ، احب يابني - فدتيك - ان تبعث الى (٧) فتجيئني به ، فوجه اليه ، فحضر وجلس ، فلما اطعان وشرب وغنى ، قالت له : يابا دليجة ، او تذكر صوت زبير بن دحمان (٨) عندي ، وانت حاضر ، فسالته ان يطرحه عليك ، قال : وهل تنسي العذراء ابا عذرها (٩) نعم ، والله اني لذاكره حتى كاننا امس افترقنا عنه قالت : فغنه ، فاندفع فغنى الصوت الذي ادعته شارية حتى استوفاه ، وتضاحكت عريب ثم قالت لجواريها : خذوا في الحق ، ودعونا من الباطل ،

١ - وزير من كبار الكتاب من بيت كتابة وانشاء . توفي سنة ٢٧٢ هـ (الاعلام ٣ / ٢٠١) وللتوسع في ترجمة الرجل وآله ينظر : كتابنا (آل وهب من الاسر الادبية في العصر العباسي

٢ - وزير من الكتاب المترسلين الشعراء . صاحب الرسالة المنسوبة اليه المسماة (الرسالة العذراء)

ينظر : الاعلام ١ / ٥٦ ، وللتوسع . ينظر : بحثنا عنه في مجلة آداب المستنصرية العدد الثاني عش ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥

٣ - اديبة شاعرة ومغنية عاصرت عدة خلفاء من بني العباس . وكانت حسنة الوجه . تجيد الضرب واللعب بالشطرنج (ينظر تفصيل الحديث عنها الاماء الشواعر ٩٩ - ١١٢)

٤ - مغنية مشهورة معاصرة لعريب (ينظر : سامراء في ادب القرن الثالث الهجري الفهارس)

٥ - البيت لعلي بن عمرو الانصاري ، رجل من اهل الادب والرواية . كان بسرمن راى كالمنقطع الى ابراهيم بن المهدي (الاغاني ١٤ / ٢١٤) .

٦ - يقال : تكلم ثم سكت بغير الف ، فاذا انقطع كلامه فلم يتكلم قيل : اسكت (حاشية الاغاني ١٤ / ٢٢٢)

٧ - مغنٍ حسن الاخذ والاداء ، بارع في صناعته ، له ترجمة في الاغاني ١٤ / ٢١١ - ٢١٦)

٨ - (احد المحسنين المتقنين الرواة الضراب ، المتقدمين في صناعة الغناء ترجمته في الاغاني ١٨ / ٣٠٠

٩ - العذره ، بالضم : البكارة ، وهو ابو عذرها وابو عذرتها

وغنوا الغناءالقديم ، ففنت بدعة وسائر جواري عريب ، وخجلت شارية واطرقت وظهر الانكسار فيها ، ولم تنتفع هي يؤمئذ بنفسها ، ولا احدمن جواريها ولامتعصبيها ايضاً بانفسهم .

قال : وحدثني يحي بن حمدون قال : قال لي عشعث الأسود : دخلت يوماً على المتوكل وهو مصطلح وابن المار في يغنية قوله :

اقاتلتي بالجيد والقد والخد وباللون في وجه ارق من الورد

وهو على البركة (١) جالس ، وقد طرب واستعاده الصعوت مراراً واقبل عليه ، فجلست ساعة ثم قمت لأبول

فصنعت هزجاً في شعر البحتري الذي يصف فيه البركة :

اذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماءً ركبت فيها

وإن علتْها الصَّبا أبدتْ لها حبُكاً مثل الجواشن مصقولاً حواشيها

وزادها زينة من بعد زينتها ان اسمه يوم يدعى من اساميها

فما سكت ابن المارقي سكوتاً مسقوجباً حتى اندفعتُ اغنّى هذا الصوب ، فاقبل على وقال لي : احسنت وحياتي ، أعد ، فأعدتُ ، فشرب قدحاً ، ولم يزل يستعيدنيه ويشرب حتى اتكأ ثم قال للفتح : بحياتي ادفع اليه الساعة الف دينار وخلعه تامة واحمله على شهري فاره بسرجة ولجامة ، فانصرفت بذلك اجمع)(٢)

ادبـــة :

كان ابن بّسام كسواه الكثيرين من ادباء العصر يتعاطى ففي الآدب : نثره وشعره وان كان الشعر يغلب عليه حتى عرف بكونه شاعراً اكثر منه ناثراً والمح غير واحد ممن اشاروا اليه او ترجموه الى مثل هذا ، فقال ابن النديم : (وكان شاعراً اديباً من الظرفاء الكتاب)(٣) وقال ياقوت : (وهو من اهل بيت الكتابة)(٤)

وقال الزركلي : (من الكتاب ، عالم بالآدب والاخبار)(٥).

وتقدم ذكر عدد من مؤلفاته ، وكان من جملتها (ديوان رسائله) . واتخذ الحموي مما اثرله من رسائل ومؤلفات سبباً في ذكره في كتابه معجم الادباء ، قال :

هوامش

١ - هي بركة المتوكل التي وصفها البحتري في قصيدة رائعة مثها ثلاثة الابيات في هذا النص .

وللوقوف على امور كثيرة تتعلق بهذه البركة ، يحسن الرجوع الى كتابنا (البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل ٢٤٧ ٢٥٥

(... وكان الغالب على ابن بسام الشعر ، ومن حقه ان يذكر مع الشعراء ، وانما حملنا على ذكره هنا رسائله وماله من التصانيف)[1] .

ومما يجدر ذكره ان شيئاً من رسائلة او مؤلفاته لم يصل إلينا ، اللّهم الاماتقدم من النصين اللذين اقتبسها ابو الفرج من بعض كتبه دون ان يسمى الكتاب الذي نسخها منه . وعلى هذا فليس بمقدورنا ان نتبين خصائص سلوبه الكتابي والاغراض رسائلة او الشخصيات التي كان يكاتبها او يكتب اليها ، وان كنا نظن انها لاتختلف عن اساليب الكتابة في عصره الذي لم يكن يحفل كثيراً بالتحاسين اللفظية والمعفوية ، وانما كان اهم خصائصه : الترسل البليغ .

شـــعره :

تقدم ان ابن بسام عرف بالشعر : كثر من النثر ، ومن اجل ذلك عد شاعراً اكثر منه ناثراً . واشرنا فيما سلف ايضاً الى ان من جملة مواد ثقافته الاولى الشعر ، وظهرت عنايته به والشعراء ولوعة به ، وبدت هذه

العناية فيما وصل الينا من اسماء كتبه ، امثال : (اخبار عمر بن ابي ربيعة) و(مناقضات الشعراء) .
(اخبار الاحوص) .

ذكر ابن النديم ان لابن بسام ديواناً يتالف من (مائة ورقة)[2] اي انه يشتمل على اربعة آلاف بيت[3] ، وهو مفقود . وتجمع لدينا من شعره مايربي على خمسين واربعمائة بيت . وكله على هيئة مقطعات تتألف من بيت او ثمانية ابيات ، ماعدا قصيدة واحدة من اربعة عشر بيتاً .

ان شيئاً غير قليل من شعره قد ضاع ، وخاصة قصائده ، منها قصائد في رثاء اهل البيت التي اشار اليها المرزباني[4] اذ لم يصل الينا منها واحدة ، ولايدري ماعددها وهل كانت قليلة او كثيرة ، كما لايعرف ان كانت من القصار او الطوال ، ومنها قصيدته التي نقضها احد الشعراء ، ولا نعلم ماكان فحواها اوغراضه ، وان كان يلوح لنا انها لم تكن ذات غرض محمود ، فقد سمى من نقضها قصيدته (ذات الهدى) . قال الصفدي

٢ - ١٤ / ٢١١ - ٢١٣

٣ - الفهرست ٢٢٠

٤ - معجم الادباء ١٤ / ١٤٠ ، وانظر : فوات الوفيات ٣ / ٩٢

٥ - الاعلام ٥ / ١٤١

١ - معجم الادباء ١٤ / ١٤١

٢ - الفهرست ٢٤٤

٣ - ذكر ابن النديم امراً مهماً في مقدمة الفن الثاني من المقالة الرابعة الذي عقده على دواوين الشعراء ومقدار شعرهم ليستهدي به من لجمع الاشعار والوقوف على عدد الابيات جاء فيه :

(... فاذا قلنا ان شعر فلان عشر ورقات فانا انما عنينا بالورقة ان تكون سليمانية ومقدار مافيها عشرون سطراً اعني في صفحة الورقة ، فليعمل على ذلك جميع ماذكرته من قليل اشعاره وكثيره ، وعلى التقريب قلنا ذلك وبحسب ماراياه على مر السنين لا بالتحقيق والعدد الجزم) (عن ديوان خالد الكاتب ص٥٦ - ٥٧ الحاشية ٩

٣ - معجم الشعراء ١٥٤

في ترجمة ابن الشخير الصيرفي : (له قصيدة طويلة سماها ذات الهدى يقص بها قصيدة ابن بسام ، رواها عنه ابو القاسم على بن المحسن الدقاق)[١] .

ومما يجدر ذكره ان لابن بسام قصيدة من اربعة عشر بيتاً ، قال عنها المسعود انه جمع فيها هجاء (جميع رؤساء اهل الدولة في ذلك العصر)[٢]فهل هي التي عورضت ؟ واكبر الظن ان ماوصل الينا منها لم يكن كل ابياتها لسببين : الاول انها غير مصرعة ، والثاني ان المعارضة تكون في العادة متقاربة في عدد الآبيات .

وذكر بعضهم ان الشاعر كان يضع الشعر في الرؤساء وينحله ابن الرومي وغيره ،[٣] كما ذكر ان بعض الشعراء كان هو الاخر ينحل ابن بسام بعض شعره ويشيعه عليه .[٤]واختلط شعره ايضاً بشعر سواه من الشعراء، فقد نسب اليه شيء ليس بالقليل من شعر شعراء اخرين ، وخاصة في الفن الذي اشتهر به ابن بسام وهو الهجاء ، امثال ابي نواس[٥] ، وديك الجن وابن طاهر ،[٦] ومصعب الموسوس ،[٧]وابن ابي حازم ،[٨]والبحتري ،[٩] وابن المعتز ،[١٠]وابي الحارث النوفلي ،[١١] وابي احمد بن ابي بكر الكاتب ،[١٢] وعلي ابن سليمان ،[١٣] وابن دريد ،[١٤] وكشاجم.[١٥] اشار المزرباني الى اختصاص الشاعر بالمقطعات او الاكثار منها ، فقال : (واكثر شعره مقطعات) [١٦] كما اشار ايضاً الى ان له قصائد في رثاء آل البيت[١٧]

١ - الوافي بالوفيات ١٦٨/١

٢ - مروج الذهب ٤ / ٢٠٧

٣ - ينظر : معجم الادباء ١٤ / ١٤٠

٤ - ينظر المصدر السابق ١٤ / ١٤٣

٥ - ينظر : العقد الفريد ٣ / ٢٩٦ وسمط اللآلي ١ / ٦١٥

٦ - ينظر: نهاية الارب ١١ / ١٨٩ ، وشرح المقامات ٢ / ١٦ ، ومحاضرات الادباء ٤ / ٥٧٥

قال : اما تراني احسن مكان عافاك الله : لاعافاك الله ! ولاموا الكميت بن زيد على الاطالة فقال : «انا على القصار اقدر» ، وقيل للعجاج : مالك لاتحسن الهجاء ؟

قال : هل في الارض صانع الا وهو على الافساد اقدر . وقال رؤبة :

(الهدم اسرع من البناء) .

وهذه الحجج التي ذكروها عن نصيب والكميت والحجاج ورؤبة ، انما ذكروها على وجه الاحتجاج . وهذا فهم جهل ان كانت هذه الاخبار صادقة . وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له بيعة في الكلام ، وتكون له طبيعة في التجارة ، وليست له طبيعة في الفلاحة ، وتكون له طبيعة في الحداء او في التغبير ، او في القراءة بالالحان وليست له طبيعة في الغناء ... ويكون له طبع في تاليف الرسائل والخطب والاسجاع ولايكون له طبع في قرض بيت شعر ، ومثل هذا كثير جداً)

١٠ ـ جمع الجواهر ٢٢٢ وانظر المصدر نفسه ١٢٠ وزهر الاداب ٦٨٩

٢ ـ معجم الادباء ١٤ / ١٤٠

ان هذه القدرة الخاصة قد تختلف عند الشاعر نفسه ، فهو قد يحسن القريض ولا يجيد الرجز وقد يجيد الرجز ولايحسن القريض ، وهو قد يتعاطاها معاً فيجيدهما ، بل نجد بعض الشعراء يحسن فنا من الشعر او اكثر وقد لايحسن فناً اخر منه او اكثر ، وهو امر واضح لدى الكثيرين من الشعراء ، ومن اجل هذا فحجج من ادعى بقدرته على الهجاء او التطويل او التقصير لوشاء مد حوضه ومرفوضة على هذا الاساس .

وقد عد بعضهم سهولة شعر ابي العتاهية ، لانه كان وليد طبعه السهل ، وشاعريته اللينة ، فقال له :

(يابا اسحاق ، اما يصعب عليك شيء من الالفاظ فتحتاج الى استعمال الغريب كما يحتاج اليه سائر من يقول الشعر ، او الى الفاظ مستكرهة ؟ قال : لافقلت له اني لاحسب ذلك من كثرة ركوب القوافي السهلة . قال : فاعرض على ماشئت من القوافي الصعبة . فقلت ابياتاً على مثل البلاغ . فقال من ساعته :

اي عيش يكون ابلغ من عيـ شي كفاف قوت بقدر البلاغ

(الابيات) . ولكن هل بوسع ابي العتاهية الاستمرار على هذا الآمر ، او انه سيرجع عنه الى مارزقه من موهبة شعرية سهلة لينة ؟

فالتطويل والتقصير في الشعر مردهما اذاً الى المقدرة الخاصة التي وهبها الشاعر ، ولاندحة له في غير ما فطر عليه ورزقه . ومن اجل هذا فقد تعذر على بعض كبار الشعراء ان يحسنوا في القصار كما تعذر على بعض آخر ان يجيد في الطوال ، وتهيأ لآخرين ان يجمعوا بين الضربين ويحسنوا فيهما .

ولمح ذلك الجاحظ فقال : (وقيل لابن المقطع : مالك لاتجوز البيت والبيتين والثلاثة ! قال : إن جزتها عرفوا صاحبها . فقال السائل : وماعليك ان تعرف بالطوال الجياد ! فعلم انه لم يفهم عنه ، . وعاتب بعضهم محمد بن حازم الباهلي وكان يقول المقطعات فيحسن على اختصاره الشعر . وقال آخر في ترجمة ابن بسام العبرتائي : (وكان مع فصاحته وبيانه لاحظ له في التطويل ، انما تحسن مقطعاته ، وتندر أبياته) ، كما قال آخر في ترجمة ابن لنكك البصري :

(...وأكثر شعره ملح وظرف ، خفيفة الارواح تاخذ من القلوب بمجامعها وتقع من النفوس أحسن مواقعها ... وما اشبه شعره في الملاحة وقلة مجاوزة البيتين والثلاثة الاّ بشعر كنيه ابي الحسن بن فارس ، واقدر انه في الجبال كهو في العراق وكان يقال في منصور الفقيه اذا رمى بزوجية قتل ، وكذلك ابن لنكك : اذا قال البيت والبيتين والثلاثة ، اغرب بما جلب ، وابدع فيما صنع ، فاما اذا قصد القصيد فقلما يفلح وينجح) . وقال آخر عن الميكالي : (وسئل الشيخ والدي عنه قال :اذا قطع قطع الشعر ، ولكنه اذا قصّد فمن كلامه الذي يوشى به الكلم ، ويظلم اذا قيس بعذوبة الظلم ...)

وقال ابن رشيق : (ولاتكاد ترى مقطعاً الاعاجزا عن التطويل ، والمقصّد ايضاً قد يعجز عن الاختصار ، ولكن الغالب والاكثر ان يكون قادراً على ما حاوله من ذلك ... وكان عبد الكريم بهذه الصفة ، لايكاد يصنع مقطوعاً ، ولاظن في جميع اشعاره فن اونحوها . وكان ابو تمام على جلالته وتقدمه مقصراً في القطع عن رتبة القصائد . والمشهورون بجودة القطع من المولدين. : بشار بن برد وعباس بن الاحنف ، والحسين ابن الضحاك ، وابو نواس ، وابو علي البصير ، وعلي بن الجهم وابن المعذل ، والجماز وابن المعتز) .

وقلنا في دراستنا شعر خالد الكاتب - احد شعراء القرن الثالث الهجري - : (اشتهر الشاعر بالمقطعات حتى غلبت على سائر شعره ، وقد عرف ذلك معاصروه ومن جاء بعدهم ولعل اقدم اشارة الى ذلك قول ابن الزيات حين قرئ بعض شعر خالد في بناء سامراء على المعتصم (ولكن بضاعته لاتزيد على اربعة ابيات) . وقول الشابشتي : (ولايتجاوز الاربعة ابيات) . ان ماقاله ابن الزيات والشابشتي في هذا الشأن يكاد يكون مطابقاً لما اثر عن الشاعر ، فهذا ديوانه يشتمل على (٥٧٧) مقطوعة وقصيدة ، منها)٥٥٠(مقطوعة كل واحدة منها من اربعة ابيات ومنها (٢٧) مقطوعة تقل عن هذا العدد ، ومنها اربع قصائد تتجاوز كل منها عشرة الابيات .

لقد كان معروفاً بقول المقطعات والاختصاص به وفي اخباره مايشير الى هذا فقد روى ان الشاعر دخل بعض الديارات فرأى شاباً فسلم عليه ، وحين سأله عن ذاته قال : انه خالد بن يزيد ، فقال الشاب : (صاحب المقطعات الرقيقة) .ويبدو ان هذا الانقطاع الى المقطعات هو الذي جعل بعض الشعراء - وقد سمع قصيدة للشاعر يشك في قدرته على المواصلة في هذه السبيل ، كأنه يستكثر عليه ان يقول في غير ماعرف به او كأنه وجد نفسه الشعري لايستطيع ان يمتد الى اكثر من هذه المقطعات . فقد روى انه (لما قال خالد في صفه سر من راى (قصيدته التي يقول فيها :

اسقني في جرائر وزفاق لتلاقي السرور يوم التلاق

(اربعة ابيات) وهي (قصيدة) لقيه دعبل فقال : يابا الهيثم كنت صاحب مقطعات فداخلت الشعراء في (القصائد الطوال) وانت لاتدوم على ذلك ، ويوشك ان تتعب بما تقول وتغلب عليه ، فقال له خالد : لوعرفت النصح منك لغيري لاطعتك في نفسي ان مالاحظه دعبل في ضعف قدره امتداد نفس خالد الشعري حق وصواب فهو ليس بمقدوره تجاوز الطاقة الشعرية التي رزقها ، ولاباستطاعته المواصلة او الاكثار من نظم القصيد ، فقلة مااثر له من قصائد من جهة وتخلف هذه القصائد فنياً عن المقطعات من جهة اخرى دليلان واضحان على مصداق قول دعبل وحكمه الصحيح اما احتجاج الشاعر لقول المقطعات وتفضيلها على القصيد فيوضحه في قوله – وقد سمع بقول ابن الزيات فيه – (اذا بلغت المراد في اربعة ابيات فالزيادة فضل) .

وعلل الجاحظ هذا الامر فقال : (ونقول ان الفرق بين المولد والاعرابي : ان والمولد يقول بنشاط وجمع باله الابيات اللاحقة باشعار اهل البدو ، فاذا امعن انحلت قوته واضطرب كلامه)[1]

١ ١- مجلة آداب المستنصرية العدد الثاني ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤ ص ٢٩٥ – ٣٠٠

ولانعلم على وجه الدقة متى بدأ ابن بسام يعاني الشعر ويذيعه في الناس ، ولانعرف ايضاً أول شعره ولامن قصد به او وجهه اليه ، وان كنا نظن ظناً ان أول ماتفتقت عنه قريحته في هذا الصدد هو الهجاء الذي عرف به اكثر من سائر الفنون الاخرى .

اطري الكثيرون شاعرية الرجل وشعره واثنوا عليها ، فقال المسعودي : (وكان شاعراً لسنا مطبوعاً في الهجاء)[1] وقال الخطيب الغدادي : (ابو الحسن الشاعر : سائر الشعر مشهور عند اهل الادب)[2] . وقال ا ضري : مليح المقطعات حلو الشعر)[3] وقال ياقوت : (وكان حسن البديهة شاعراً ماضياً اديباً) [4] وقال ابن خلكان : (الشاعر المشهور ... وكان من اعيان الشعراء ومحاسن الظرفاء لسنا مطبوعاً في الهجاء ...)[5] ان مماوصل الينا من شعره ينحل الى الفنون الشعرية المعروفة هجاء ومدح ورثاء وفخر وغزل ووصف وشراب وشكوى وحكمة ومجون وتعريض او تهديد ...

وتختلف نسبة وجود هذه الفنون في شعره اختلافاً حددته طبيعة ميل الشاعر اليها ، ولاقته بابناء مجتمعه وسيرته في الحياة . وهي عامة قليلة اذمسرقبستبالفن الذي اشتهر به واطغى على سائر الفنون الأخرى وهو الهجاء .

فالمديح لديه قليل جداً ، مع ان في شعره الرجل مايدل على انه كان يتردد الى بعض اولى الامر ، ويطيل الوقوف على ابو ابهم دون الحصول على مايرجوه :

وقفت شهوراً للوزير اعدها فلم تثنه نحوى السوالف

فلا هو يرعى لي رعاية مثله ولا انا استحيي الوقوف وآنف[6]

ومن ثنائه اعترافه بجميل بعضهم وفضلهم عليه وعقده الآمال عليهم في حالاته المختلفة كابني الفرات وابن مقله ، مقلة مديحه غير مغال في الاوساف ولا مسرف في الثناء ، كقوله في ابن مقلة :

يازينة الدين والدنيا وماجمعا والامر والنهى والقرطاس والقلم
ان ينسئ الله في عمري فسوف ترى في خدمتي لك مايغني عن الخدم
ابا علّي لقد طوقتني مناً طوق الحمامة لاتبلى على القدم
فاسلم فليس يزيل الله نعمته عمن يبث الايادي في ذوى النعم(٧)

١ - مروج الذهب ٤ / ٢٠٦ ، وانظر : الفهرست ٢٢٠

٢ - تاريخ بغداد ١٢ / ٦٣

٣ - جمع الجواهر ٢٢٢ ، وانظر : زهر الآداب ٦٨٩

٤ - معجم الادباء ١٤ / ١٤٠

٥ - وفيات الاعيان ٣ / ٣٦٣ وانظر : اللباب ١ / ١٢١ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٨٩ ، ومرآة الجنان ٢ / ٢٣٦ - ٢٣٩ ، والكنى والالقاب ١ / ٢٢٤ - ٢٢٥

٦ - مروج الذهب ٤ / ٢١١

٧ - معجم الادباء ١٤ / ١٤٩ ، وانظر ماقاله في ابني الفرات : الوزراء ٨٦

ورثاؤه الذي وصل الينا قليل ايضاً ، ولم يكن منه رثاؤه البيت كما قيل ، اذ لم يصل الينا منه شيء ، ولعل من اهم مايذكر في هذا الشأن رثاءه ابن المعتز ، وهوأمردلّ فيه ابن بسام على جرأة نادرة ، ووفاء لحق الادب ، فقد رثاء في وقت يصعب على سواه المجازفة فيه ، علماً بان بين الرجلين من المهاجاة والاختلاف ماسبق ذكر بعضه . والحق ان ابن بسام في عمله هذا ليقف شامخاً مطاولاً الكثيرين من أندادة الشعراء ، على مّر الحقب ، و سيبقى النموذج العالي في الجراة والوفاء وقول الحق .(١)

وغزله مع قلته ، ليس فيه جديد او مايدل على الاصالة و يظهر انه لم يتورط كغيره من شعراء العصر بحب واحدة معينة ، ولعل احسن مايؤثر له في هذا الفن قوله :

لقد صبرت على المكروه اسمعه من معشر فيك لولا انت مانطقوا
وفيك داريت قوماً لاخلاق لهم لولاك ماكنت ادري انهم خلقوا

وفي شعره نماذج قله من فن الشراب ، وهي لاترتقى الى مستوىماأثر لسواه ممن : أكثروافي هذا الفن حتى كادوا لايتركون لغيرهم مجالاً للقول فيه ، ومن لطيف ماأثرله في هذا اللون قوله

اما ترى الليل قد ولّت غياهبه وعارض الفجر بالاشراق قد طلعا
فاشرب على وردة وردية قدمت كانها خدّ ريم ريم فامتنعا(٣)

وعلى الرغم من انتساب الرجل الى اسرة معروفة فانه لم يتخذها وسيلة للتفاخر او التباهي ، ولم يكثر الاشادةبنفسهوفنه ، واطرف ماله في هذا الشأن قوله :

ترى ابا البخيل لها سلاح تهاب ، وما لابلى من سلاح
تناوح إن رات شخصاً غريباً يوافي عند هَبات الرياح[٤]

وفي شعره شيٌ من الشكوى ، وأكثره في شكوى الزمن ، ومنه الشكوى من اطراحةوتقديم سواه عليه معانه يتميز عن الآخرين بجدارته وقدرته وتفوقه من ذلك قوله في احد الوزراء .

رجوتُ لك الوزارة طول عمري فلما كان منها مارجوت
تقدمني أناس لم يكونوا يرومون الكلام اذا دنوت
فاحببت المات وكّل عيش يحب الموت فيه فهوموت[٥]

وفي قريضة شيٌ مما يمكن ان نسميه تعريضاً او تهديداً وجهة الى غير واحد ممن اتصل به فبدر منه مالم يرضه ، وهو يكاد يقرب كثيراً من فن الهجاء ، كقوله في والٍ زاره فوجده نائماً :

مُحتجب دون من يلم به وليس للخارجات حجّابُ
لانَّ للخارجات منفعة تأتيه ، والداخلون طّلابُ[١]

وقوله في رجل تنقصه في الدعاء :

لساني بالثناء عليك رطب وبالمكروه ان احببت عضب
اتنقصني الدعاء فذاك شيٌ على مثلي من الاحرار صعبُ
فان عاودته فأجبت عنه فما لك إن اسأت الى، ذنب[٢]

وقوله ، ولعله اعنف ماقال في هذا الضرب من الشعر واقساه في جماعة من الرؤوساء

قل للرؤوس ومن ترجى نوافلهم ومن يؤمل فيه الرفد والعمل
ان تشغلوني باعمال اصيرها شغلاً ، والافقي اعراضكم شغل[٣]

١ - انظر : ارثاؤه فيماتقدم من البحث
٢ - الحماسة الشجرية ١٨٢ ١ ١٨٣
٣ - قطب السرور ٦٣٦ - ٦٣٧ ، والمرقصات والمطربات ٥٣
٤ - محاضرات الادباء ٢ / ٦٥٥
٥ - معجم الادباء ١٤ / ١٥٠

وفي جانب من شعره تسجيل لبعض الحوادث السياسية في عصره ، منه تسجيله لحادثه وقعت بين احد المتصعلكين الذي عاث في بعض النواحي فساداً ونهب الدور فتصدى له بعض الموالين للخلافة وجرت بينهما معركة اضطر معها الموالي للخلافة عبور النهر هارباً :

قد اقبل الطائي لا أقبلا قبح في الافعال ما اجلا

كأنه من لبن الفاظه صبية تمضغ جهد البلا[٤].

ومنه قوله في احد الخارجين على الخلافة ايضاً وهو عمرو بن الليث الصفار ، وجيء به اسيراً الى بغداد رافعاً يديه يدعو وهو على جمل فالج ، وهو ذو السنامين :

ايها المغتر بالدنيـ ـا أما ابصرت عمراً

مقبلاً قد اركب الفا لج بعد الملك قسرا

وعليه برنس السخـ ـطة اذ لالاً وقهراً

رافعاً كفيه يدعو الله اسراراً وجهراً

ان ينجيه من القتـ ـل وان يعمل صفراً[٥]

وعلى الرغم من ان الوصف يشمل اكثر فنون الشعر او جلها ، وانه يمكن الوقوف على شيء منه لدى الشاعر مما مرّ له من نماذج شعرية وما سيأتي منها ، الا أننا نرى أن نشير الى شيء منه مما يمكن ان يكون مقصوراً عليه دون سواه كقوله في وصف ثوبه الخلق ، وهو وصف لا يخلو من براعة التصوير ودقة التشبيه وطرافته :

لها فلا رفوها يجدي ولا رقعها يغني

يفارق الحياة ، بل ان في هذه الحياة من المفارقات عجيب :

قد يحمل الشيخ الكبيـ ـر جنازة الطفل الصغير[١]

وهذا الانسان الذي يعطي نفسه من الاهمية اكثرها مما تستحق ينظر اليه الشاعر بالمنظار الحقيقي لحقيقته . والتي تتمثل في بقولة

مروج الذهب ٤ / ٢٠٩

٤ - تاريخ الطبري ١٠ / ١٤ حوادث ٢٧٥ هـ

٥ - مروج الذهب ٤ / ١٨٣

عببت من معجب بصورته وكان من قبل نطفة مذره
وفي غد بعد حسن صورة يصير في الارض جيفة قذره
وهو على عجبه ونخوته مابين جنبية يحمل العذره[٢]

ان كل شيٌ في هذا الكون يقّدره الله تعالى وحده ، فليس هناك من يستطيع عمل شيٌ سواه :

ماقدّر الله ليس يدفعه وما سواه فليس يمكنه[٣]

وعلى هذا ، فعلى الانسان ان يقنع برزقه الذي قّدر له ، فلا يجهد نفسه ولا يتسخط لمارزقه لان مالدية بكفيه لسد حاجته ، بل هو اكثر مما يحتاجه او يستحقه :

مالي رأيتك دائباً متسخطاً ابداً لرزقك
ارجع الى ماتستحـ ـق فان قوتك فوق حقك[٤]

ونظرة الشاعر هذه في القناعة والاكتفاء بما يرزقه المرء في حياته ، هي التي اوحت اليه ان يقول :

بيتي احب الي من بيت الخليفة والوزير
فاذا اكلت كسيرة وشربت من ماء الغدير
فانا الخليفة لاالذي يعلى به اعلى السرير
ان القليل اذا اصفا وكفى ينوب عن الكثير[٥]

بل لعل مارآه من تقلب احوال الناس والمجتمع في الحقبة الطويلة التي عاشها ، وهي حقبة - كما تقدم - زاخرة بالتحولات والتقلبات في كل شيٌ ، هي التي املت عليه هذه الابيات التي استقطب فيها اكثر ماسبق ذكره من هذا الفن ، كما اودعها شيئاً من الحكم :

الارب ذل ساق للنفس عزة ويارب نفس للتعزز ذلت
تبارك رزاق البرية كلها على مارآه لاعلى ما استحقت
فكم حاصل في القيد والباب دونه ترقت به احواله وتعلت

١- التمثيل والمحاضرة ١١٦
٢ - الكنى والقاب ١ / ٢٢٥
٣ اعتاب الكتاب ١٨٨
٤ - مروج الذهب ٤ / ٢٠٩
٥ - رسائل الثعالبي ٧٩

تشوب القذى بالصفو والصفو بالقذى ولو أحسنت في كل حال لملت
ساصدق نفسي ان في الصدق راحة وارضى بدنياي وأن هي قلت
وان طرقتني الحادثات بنلبه تذكرت ماعوفيه، منه فقلت
ومامحنة الا والله نعمةٌ اذا قابلتها ادبرت

ويظهر ان ابن بسام الذي اتصفت علاقته بانباء مجتمعة بالتأزم الحاد والصراع العنيف
حتى ليكاد ان يكون طرازاً فريداً بين الشعراء في صلاته هذه - راجع نفسه واستعرضي علاقاته بالآخرين ، فتوصل الى نتيجة تغاير ماعرف عنه من العلاقة المتأزمة بينه وبين ابناء عصره ، ورای ان لامناص له من المصافاة والمهادنه اللتعين صورهما في قوله :

عاتب اخاك اذا هنا واعطف بودك واستعده
واذا اتاك بغيبة واش فقل لم يعتمده
من ناقش الاخوان لم يبد العتاب ولم يعده[٢]

اما اهم فنونه الشعرية خاطبه فهو الهجاء ، لانه الميدان الفسيح الذي انطبقت فيه شاعريته بلا حدود ، والغرض الكبير الذي اودعه كل مارزقه من طاقة فنية ، وقدرة ادبية ، حتى لايكاد يعرف الابه ، ولايذكر الا عن طريقة ، وتقدم شاعريته الأمن خلاله .

قال المرزباني : (استفرغ شعره في هجاء ابيه محمد بن نصر وهجاء الخلفاء والوزراء وجلة الناس)[٣] . وقال ابن النديم : (وكان شاعراً ادبياً من الظرفاء الكتاب لايسلم من لسانه احد)[٤] ، وقال الحصري : (حلو الشعر خبيث الهجاء)[٥]

وقال ابن كثير : (الشاعر المطبق الهجاء ، فلم يترك شيئاً حتى هجاء ، حتى ابناه وامه اميمة بنت حمدون النديم)[٦]

ان مما تشير اليه النصوص المتقدمة شمول الشاعر الناس بهجائه على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية والرحمية . وهذا حق ، فان ماوصل الينا من هجائه كان موزعاً على ابناء المجتمع كانه بلا استثناء ، فمن هجاهم من ابناء اسرته :

١ - الفرج بعد الشدة ٥ / ٥٣ . وللوقوف على شيٍ من حكمة ينظر : محاضرات الادباء ٣ / ٩ ، ٤ / ٤٩٩ ، ولطائف المعارف ٤٦

٢ - بهجة المجالس ١ / ٧٢٧

٣ - معجم الشعراء ٤ / ٢٠٦ وانظر ايضاً مروج الذهب ٤ / ٢٠٦ ومعجم الادباء ١٤ / ١٤٠وشرح المقامات ٣ / ٢٢٦ ، ووفيات الاعيان ٣ / ٣٦٣ وفوات الوفيات ٣ / ٩٢ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٨٩ ومرآة الجنان ٢ / ٢٣٨

٤ - الفهرست ٢٢٠

٥ - جمع الجواهر ٢٢٢

٦ - البداية والنهاية ١١ / ١٢٥

والده[١] ، وامه واخوه وعمه وابن عمه ، ومن الخلفاء المعتضد ، ومن الامراء : الموفق وابن عمرويه ، والطائي ، واسحاق بن عمران ، ومن الوزراء : العباس بن الحسن ، وعلي بن عيسى ، وعبيد الله بن سليمان وابنه القاسم ، وابناء الفرات واسماعيل بن بلبل ، وحامد بن العباس ، وصاعد بن مخلد ، والخاقاني ، ومحمد بن داود الجراح ، وابن مقلة .

ومن الشعراء والكتاب : ابن المعتز وجحظة ، واسد بن جهور ، وابن المرز بان ومحمد بن جعفر الغربلي ونفطوية .

كما هجا آخرين امثال المغني المعروف بلحية التبس ، واحمد بن محمد بن خالد ، وابي عمرو ، واسحاق بن ايوب التغلبي ، وعبدون بن مخلد وغيرهم .

ان هذا الاتجاه الطاغي في الهجاء لابد ان يكون وراءه سبب اواسباب ، كانت تغذيه وتزجيه وتمليه ، حتى كاد الشاعر ينقطع اليه دون سائر الفنون الاخرى كما تقدم وقد لانبعد كثيراً عن الصواب اذا مازعمنا ان دوافع هذا الفن عامة تعود الى واحد او اكثر مما ياتي .

١ - دناءه النسب ووضاعته ، اذ يسعى الشاعر اليه للتغطية والتعويض

٢ - الفقر والعوز ، فيلجأ الشاعر اليه ليعطي اتقاء شره ، وسلاطة لسانه

٣ - الحسد والغيره ،

٤ -الخمول والضعف ، فعن طريقة يعالج الشاعر مايحسه ويشعر به من خمول الذكر وضعف القبيل.

٥ - الاتجاه المذهبي او السياسي .

٦ - المرض النفسي المتمثل بالتازم الحاد مع ابناء المجتمع .

١٧ التعالي وازدراء الآخرين .

١٨ ابتغاء الشهره وديوع الصيت .

٩ - ضعف الطاقة الشعرية والتخلف عن مجاراة الشعراء الكبار .
١٠تقويم المجتمع واصلاحه .

ولو تلمسنا هذه الدوافع ومايمكن ان نركن اليه في اتجاه ابن بسام هذا لوجدنا ان بعضها لايمكن ان تصدق عليه ، فهو -كما تقدم - من اسرة كريمة معروفة ، ذات ثراء ومركز اجتماعي واداري ، كما نشأ نشأة جيدة في كنف اسرته ، وهو لم يكن ذا اتجاه سياسي او مذهبي متعصب ، ولعل شمول هجائه كل احد دون تفريق دليل على هذا ، كما لم يكن مصلحاً اجتماعياًاو ذا هدف تقويمي ظاهر ، يدافع عنه ويسعى الية .

ويخيل الينا ان من دوافع اتجاهه هذا ، حدة مزاجه الذي قد يقرب من حالة المرض ، ولعل مامر من اخباره وعلاقته السيئة مع سائر الناس ابتداء من ابويه وابناء اسرته وآله وانتهاء بسائر ابناء المجتمع دليل على هذا ، ولعل هذا الدافع او السبب جعله ينظر الى الناس نظرة ازدراء واحتقار

١ - هجاء بثماني مقطوعات .

وقهيب وحذر مما جعله لايرضى عن احد : خليفة كان او وزيراً او اميراً او والياً او سوى ذلك . فهو لايثني على احد لانعدام الاحرار وقلتهم - على حد قوله - مجيباً بعضهم حين الح الى ان شعره تغيّر :

قالوا : تغير شعره عن حاله فالسوق كاسدة بغير تجار
اما الهجاء فقد عراني كثرة والمدح قّل لقّله الأحرار[1]

وهو لايفرق في هجائه بين الكريم واللئيم فا لكل لديه سواه :

اني لاهجو من يجود بفضله فيظنني ادع اللئيم الراصنعا

ولعل ابتغاء ، الشهره وذيع الصيت من اسباب هذا الهجاء ايضاً ، وانه وجد طاقته الشعرية تقصر عن مجاراة طاقات شعراء عصره الكبار ، فلجأ الى هذا اللون من الشعر واختص به وجعله وكدة ومبتغاه .

تقدم ان الشاعر عمم بهجائه الكثيرين من ابناء مجتمعه ، وسنقف عند اهاجيه لطوائف ممن شملهم هجاؤه هذا .

فقد هجا اباه وسائر افراد اسرته وذوي رحمه ، فقال في ابيه عدة مقطوعات تناول فيها التركيز على دارة التي سلف ذكرها والتي كانت فخمة مشهورة في ذلك الوقت ، فحاول التقليل من شانها عن طريق نعت صاحبها بالبخل والشح وانعدام المروكة ، قال

بني ابو جعفر داراً فشّيدها ومثله لخيار الدور بنّاء

فالبوم داخلها والذل خارجها وفي جوانبها بؤس وضراء
ماينفع الدار من تشييد حائطها وليس داخلها خبز ولاماء[٣]

ووقف الشاعر عند صفة الكرم والبخل فحاول سلب الاولى من والده والصاق الثانيه به ، وشدد على هذا في اكثر من مرة ، من ذلك قوله :

راى الجوع طبّاً فهو يحمي ويحتمى فلست ترى في داره غير جائع
ويزعم ان الفقر في الجود والسخا وان ليس حظ في اكتساب الصنائع
لقد امن الدنيا ولم يخشى صرفها ولم يدر ان المرء رهن الفجائع
لقد امن الدنيا ولم يخشى صرفها ولم يدر ان المرء رهن الفجائع[٤]

وتتأزم حالة الشاعر النفسية تجاه ابيه ، ويطعن عقوقه ونكرانه حق الابوة فيتمنى لدار ابيه الغرق ولصاحبها الموت :

شدت داراً خلنها مكرمة ساط الله عليها الغرق
وارانيك حريقاً وسطها وارانيها صعيداً زلقا[٥]

وهذا الهجاء العاق كان من اجل شيء واحد وهو المال :

هبك عمرت عمر عشرين نسراً أترى انني أموت وتبقى
فلئن عشت بعد يومك يوماً لأشقنّ جيب مالك شقا[١٨]

١ - الوزراء ٧٧
٢ - التمثيل والمحاضرة ١٠٧
٣ - مروج الذهب ٤ / ٢٠٦
٤ - نفسه ٤ / ٢٠٧ ونظر مثل هذا : المصدر نفس ٤ / ٢٠٩
٥ - زهر الآداب ٦٩٠

واصاب شواظه المتطاير زوجة ابيه ، فنال منها ونعتها بافحش النعوت ورماها باقبح المقابح(٢) كما نال من اخيه بعده مقطوعات ،نحافي بعضها منحى لطيفاً استغل فيه لقبه (الثلج) فقال :

اهداك قوم لي فآليت لا اذوق شيئاً منك او تحضر
فانت ملفوف الى ان تجي يذيبك الحُر وماتشعر(٣)

ونحافي بعضها الآخر منحي مقذعاً ، حيث رمى اخاه بالفاحشة والعمل الشائن في ايام صباه(٤) .

وهجا عمه وابن عمه فرماهما بالبخل وتلّه الخير ايضاً(٥٨)

وهجا المعتضد بمقطوعات عدة ، فنال وتمنى له المكروه واتهمه وقلة والبخل . فقال فيه - وقد ختن ابنه - مصوراً تصويراً لايخلو من الطرفة والدعابة حفلة ذلك الختان التي اقامها الخليفة بهذه المناسبة :

انصرف الناس من ختان يرعون من جوعهم خزامى
فقلت : لاتعجبوا لهذا فهكذا تختن اليتامى(٦)

وسلك في هجائه عدداً من الوزراء والامراء الذين عاصرهم او تردد اليهم فلم ينج واحد منهم من سهام ثلبه التي كان يرميها في كل اتجاه ، واتخذ عدة طرائف او معاني في هجاء هذه الطبقة المسؤولة عن ادارة شؤون الدولة ، والتي تعرضت في هذه الحقبة من العصر العباسي الى تقلبات وتبدلات كثيرة مستمرة ، وكانت مادة دسمة استقى منها الشاعر الكثير من معاني فنه هذا

صور ابن بسام في جانب من هجائه ظلم اولئك المسؤولين وماكانوا يستحوذون عليه بحكم مراكزهم السياسية من اموال ، ومايشيدونه من دور ، فشدد في هذا متهماً اياهم بالسطو والظلم ، ومذكرهم انكل شي مصيره الزوال وخاصة مايأتي عن طريق الظلم والمصادرة . فقال في احدهم :

تحمل اوزار البرية كلها وزير بظلم العالمين يجاهر

١ - حماسة الظرفاء ٢ / ١٣٢
٢ - انظر المصدر السابق ٢ / ١٣٢
٣ - ربيع الابرار ١ / ١٤٥
٤ - انظر : شرح المقامات ١ / ١٩٨ ، وحماسه الظرفاء ٢ / ١٣٢
٥ - انظر : حماسة الظرفاء ٢ / ١٣٣ ، والتحف والهدايا ١٣٩
٦ - مروج الذهب ٤ / ٢٠٨ وانظر : حماسة الظرفاء ٢ / ١٦٧ ، ومعجم الادباء ١ / ١٤٣

الم تر اسباب الذين تقدموا وكيف اتتهم بالبلاء الدوائر[1]

وقال في آخر :

بنيت على دجلة مجلساً تباهى به فعل من قدمضى
فلاتفرحنّ فكم مثل ذا راينا ماتمّ حتى انقضى[2]

وقال في ثالث :

قل لابن مقلة مهلا لاتكن عجلاً فانما انت في اضفات احلام
تبني بانقاض دور الناس مجتهداً داراً ستنقض ايضاً بعد ايام[3]

وكان الشاعر بعض ماكان يقع في عصره من الامور الغريبة في مجال السياسة كان يولى وزيران في آن واحد ، علماً بان العادة الجارية ان يولي وزير واحد ، فيتخذ من هذا موضوعاً لهجائه يندد به ، نحو قوله :

فقدتكم يابني الجاحده ففي كّل يوم لنا آبده
حتى كان يعرف فيما مضى وزيران في دولة واحده[4]

او كان يولى اكثر من ناظر لمدينة واحدة في وقت واحد ، و لطرافة هذا الامر وغرابته نرى ان نذكر في هذا المجال الخبر المتعلق به .

قيل عن احد الوزراء انه (كان سيئ السيرة والتدبير كثير التوليه والعزل قيل : انه ولي في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة ، وأخذ من كل واحد رشوة فانحدر واحد حتى اجتمعوا جميعهم في بعض الطريق ، فقالوا : كيف نصنع ، فقال احدهم : وان اردتم النصفة فينبغي ان ينحدر الى الكوفة آخرنا عهداً بالوزير فهو الذي ولايته صحيحة لانه لم يأت بعده احد ، فاتفقوا على ذلك ، فتوجه الرجل الذي جاء في الاخير نحو الكوفة وعاد الباقون الى الوزير ففرقهم في عدة اعمال ، وهجاء الشعراء ، فما قيل فيه ... ومما قيل فيه) .[5]

وزير مايفيق من الرقاعه يوليّ ثم يعزل بعد ساعه
ويدني من تعّجل منه مال ويبعد من توسّل بالشفاعه
اذا اهل الرشا صاروا اليه فاالخظى القوم او فرهم بضاعة
فلا رحما تقريب منه خلقاً سوى الورق الصحاح والاشفاعة
وليس بمنكر ذا الفعل منه لان الشيخ افلت من مجاعة[6]

١ - مروج الذهب٤ / ٢١٠ وانظر مثالاً آخر في الاقتباس من القرآن الكريم ٢٤٠
٢ - مروج الذهب ٤ / ٢١٠

كان ابن بسام يقظاً منتبها لكل حادثة او امرمهما كان شأنه ، يترصده ويتسقطه ليعقد عليه هجاءه ، ويصوره تصويراً حياً ويبرزه بلون وحدة او بألوان شتى ، بعضها - كما مرت فيه قسوة وحدة ، وبعضها يجمع بين القاواة والطرافة واستعان في النيل من مهجويه برسم صور لهم لاتخلو من العبث والفكاهة، فتتبع ازياءهم وزينتهم ساعة تقليدهم ، كما اتخذ من شكو لهم ووجوهم ولحاهم وبعض صفاتهم ، مواد لفنه الساخرالذي لاينضب . فهذا احد مهجويه يبدو في حلته بعد تقليده الوزارة في صورة جارية رعناء استعارت ملابس مولاتها ، فبدت في هيئة ساخرة مضحكة :

وزارة العباس من نحسها ستقلع الدولة من اسها
شبهته لما بدا مقبلاً في خلع يخجل من لبسها
جارية رعناء قد قّدرت ثياب مولاها على نفسها[1]

وهذا ثان يظهر بعد الخلع عليه وتزيينه في هيئة لاتختلف عن هيئة الجمال التي يفعل بها عند اعدادها للنحر ، اذ ان كلامنهما لايدري ماذا اعدّ له من امر خطير :

خلعوا عليه وزيّنو ه ومّر في عزّ ورفعة
وكذاك يفعل بالجما ل لنحرها في كل جمعة[2]

وهذه صورة ثالثة من صور الشاعر الساخرة التي استغل فيها : اشكال المهجوين وخلقهم، لينفذ منها الى الهزء بهم والنيل منهم :

لعن الله الذي قلد عباس الوزاره
والذي ولى ابن عمرو يةَ ببغداد الاماره
فوزير شنج الوجـ ـة بطين كالغرارة
وقفاً فيه سناماً ن ورأس كالخياره
وامير عجميّ كحمار ابن حماره
رحل الاسلام عنا بتوليه الاداره [3]

ومن افانين هجائه الفكاهي الساخر ايضاً قوله في احد الوزراء وقد رتب معه آخر يدير الامور بين يديه

٤ - خاص الخاص ١٣٧
٥ - الفخري ٢٦٧
٦ - معجم الادباء ٤ / ١٤٦

يالبن الفرات تعزه قد صار امرك آية
لما عزلت حصلنا على وزير بداية[٤]

كما هجاء الشاعر يتخذ - كما تقدم - الواناً مختلفة في بعضه صرامة وحدة ده ، وفي بعض آخر طرافة ووخر خفيف ، وفي بعض شماتة، وقسوة متناهية ، ومما يمثله لونه الاخير قوله في احد الوزراء وقد مات له ابن وبقي آخر :

ابلغ وزير الامام عني وناد ياذا المصيبتين
يموت خلف الندى ويبقى حلف المخازي ابو الحسين
فأنت من عميد قلب وانت من ذاسخين عين
حياة هذا كموت هذا فالطم على الرأس باليدين

وزرع الشاعر هجاء بين ابناء عصره فخص كل واحد منهم بمقطوعة او اكثر ، وكان اكثر هجائه في رجال الدولة ، وحاول في قصيدة له وصل الينا منها اربعة عشر بيتاً ، (ان يجمع فيها جميع رؤساء اهل الدولة في ذلك العصر) ، وكأني به اراد ان يجعل من قصيدته هذه قلادة ينظم في سمطها ماتفرق من الالى اهاجيه لتكون ميسورة في ايدي محبي فنه بل لعله ارادبها ان تكون على غرار مزدوجه ابن المعتز في المعتضد التي تحدث فيها طويلا عن سيرة الخليفة والاحوال السياسية ولاجتماعية وغير ذلك في غضون القرن الثالث الهجري[٢] .

واكبر الظن ان ماوصل الينا من قصيدة ابن بسام لم يكن الاجزء يسيراً ، ولعل ماذكر عنها انفاً دليل على هذا[٣] ، واول القصيدة

ايرجو المونق نصرا لاله وامر العبادالى دانيه
(٤)

١ -زهر الآداب ٦٨٩
٢ - خاص الخاص ١٣٦ - ١٣٧
٣ - مروج الذهب ٤ / ٢٠٨ وانظر مثل هذا : ثمار القلوب ٢٠٩
٤ - معجم الادباء ١٤ / ١٥٠

ولاشك في ان هجاءه كان له وقع كبير في ابناء عصره ، وانهم لذلك كانوا يخشونه ويحذرون صاحبه ، ذلك على ابطال ما كانوا يقومون به من اعمال او مداراة صاحبة وملاينته وملاطفته او عملون على ذلك ومن يدري فلعل الكثيرين كانوا يحدون فيه ما ينفس عن احاسيسهم ويترجم مشاعرهم وانهم كانوا ينشدونه في مجالسهم ، ويتطارحونه فيما بينهم

وفي اخبار الشاعر ما يشير الى حي من حياته ، فقد روى عن ابن حمدون خبال الشاعر قوله : (كان المعتضد امر بعمارة البحيرة واتخاذ رياض حواليها ، وانفق على الابنية فيها ستين الف دينار ، وكان يخلو فيه مع جوارية ، وفيهن جارية يقال لها (دريرة) فقال الشاعر

ترك الناس جيرة وحمى في سحيرة

فاعد يضرب [illegible] حمى حريرة

وبعث [illegible] ستعمرة فلم يظهر لاحد انه سمعه . وامر تخريب مستعمره من تلك العمارات والابنية

وروى عن بعضهم قوله :

(لما تقلد ابو الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات الوزارة كنت اجالسه واذانه ، فحدثني يوماً ان اباه حدثه قال تقلدت مصر وكان بيني وبين ابي الحسين بن بسّام مودّة ورضاع ، ونحن مختلطون ، وانا بمصر يوماً فما شعرت الابابن بسّام قد دخل الى متقلداً للبريد فأفهمته احواني ، وقد سمته اكثر مروءتي واموالي ، وتطلبت الخلاص من لسانه بكل شيء يمكن ، واوصيت حاجبي الايحجبه عني ولو كنت مع زوجتي ، فجاء يوماً وانا نائم فقال له الحاجب : ادخل فدخل فوجدني نائماً فاستدعى دواة وكتب شيئاً وتركه وانصرف . فلما انتبهت عرفني حاجبي ذلك ، فاخذت الرقعة فاذا فيها :

محتجب دون من يلم به وليس للخارجات حجابُ

لانّ للخارجات منفعةً تأتيه والداخلون طُلاّبُ

قال : وبحثت اعرف خبره لاعاتبه ، فاذا هو تحمل وسار عن البلد ، فكتبت اليه اداريه واطفه ليرجع فلم يجب)[1]

وروى انه (هجا الوزير علي بن عيسى بن داود بن الجراح لما نفي الى مكة ، فلما ردت الوزارة جلس يوماً للمظالم فمرت في جملة من القصص رقعة فيها مكتوب :

معجم الادباء ١٤ / ٤٥

- انظر : شعر بن المعتز ـ ١ / ٥١٩ – ٥٩١

٣ – انظر : البحث

: مروج الذهب ٤ / ٢٠٧ – ٢٠٧

٥ – معجم الادباء ١٤ /١٤٣ – ١٤٤

وافي ابن عيسى وكنت ابغضه أشد شيٍ عليَّ أهونهُ
ماقدّر اللهُ ليس يدفعهُ وماسواهُ فليس يمكنهُ

فقال علي بن عيسى : صدق هذا ابن بسام والله لانا له مني مكروه ابداً)[2] وشهرته، بهذا اللون من الشعر - شحته ليكون نموذجاً يقتدي به بعض من اعقبه من الشعراء ، جاء في ترجمة (العطواني) انه :

(ظريف بخاري وشاعر ما وراء النهر في صدر الدولة السامانية فترفع عن خدمة الجيهاني في والبلعمي ... وهجاهما في متشبهاً بابن بسام هجاء الوزراء)[3]

ولو اردنا استقطاب ماتميز به شعر بن بسام من خلال ماتمثلنا به ، ومن خلال ماوصل الينا منه مما لم نذكره في هذا الدراسة ، فبوسعنا تلمس ذلك في فن الهجاء الذي يكاد - كما تقدم - يطغي على سائر الفنون الاخرى لديه ، والذي عرف به الشاعر واشهر ، وعلى هذا فالحديث عما نلمحه من سمات واضحة يكاد يكون مقصوراً على فنه هذا واول سمة من سمات هذا اللون من الشعر انه (مطبوع) وتقدمت اشارت بعض مترجميه الى هذا .

١ - معجم الادباء ١٤ / ١٤٧ - ١٤٨ . وللوقوف على خبر اثابته من اجل هجائه ، ينظر ماتقدم في توليته البريد

٢ - نفسه ١٤ / ١٤٠ - ١٤١

٣ - لطائف المعارف ٥٠ - ٥١

ومن سماته ايضاً انه على هيئة مقطعات تركز المعاني وتكثف ، وسلف ان هذه اكثر من سبب طبع شعره بهذه السمه ، مما كان له صدى واسع مقبول في الاوساط الادبية آنذاك . ولاشك في ان ابن بسام برع في هذه المقطعات واحالها الى فن قائم بذاته ، بحيث تهيأ له عن طريقها اثبات شاعريته وإقرارها وحمل الكثيرين على الاعجاب بها ، والتقدير لها ، ومن ثم الاقبال الكبير على تلقف شعره وإنشاده وتناقله .

ومن الملامح البارزة في شعره هذا الميل الى السخرية اللاذعة ، والنيل من المهجو مباشرة دون الاختفاء وراء الكنايات او التوريات ، فكان لهذا الاتجاه وقعة المؤثر المرجع فيمن وجّه اليهم هذا الشعر ، ولم يخل احياناً من الهجر الفحش ومن سماته كذلك الواقعية التي استند الشاعر عليها في اكثر ماأثرله من شعر في هذا الفن ، وساعده على هذا اضطراب احوال العصر الذي نشأ فيه كما تقدم . ومما يلحظ في شعره ايضاً التصريح باسماء المهجوين ، ولعل قصيدته التي وصل الينا منها اربعة عشر بيتاً - كما تقدم - خير نموذج على هذا .

شعره ايضاً التصريح باسماء المهجوين ، ولعل قصيدته التي وصل الينا منها اربعة عشر بيتاً - كما تقدم - خير نموذج على هذا .

ومن هذه السمات البارزة سهوة اللفظ . وفصاحته وقوة المعنى وبلاغته ، فكان الشاعر ينتخب كل لفظ ذى ايحاء مؤثر ، ويعمد الى كل : اسلوب مركز ، من اجل هذا حفظ الكثير من شعره ، وتناقلته المصنفات ، ورداه غير واحد من الادباء والرواة .

ومن الجدير بالذكر ان للشاعر مقطوعة يبين فيها رايه فيما ينبغي للمرء ان يأخذ به نفسه من وسائل الثقافة النحوية واللغوية ، مما يمكن ان يعد النموذج الجيد الذي جعله الشاعر نصب عينيه في نتاجه الادبي والشعري . يقول :

رايت لسان المرء وافد عقله وعنوانه فانظر بماذا تعنون
ولاتعد اصلاح اللسان فانه يخبّر عما عنده ويبين
ويعجبني زيّ الفتى وجماله فيسقط من عينيّ ساعة يلحن
على ان للاعراب حداً وربماً سمعت من الاعراب ماليس يحسن
ولاخير في النفط الكريه استماعه ولافي قبيح اللحن والقصد ابين

وكان الشاعر يعمد احياناً - تقريباً للمعنى وتأثيرا في المهجو - الى استعمال لغه العامة

اذا صح التعبير او اللغة الشعبية السائدة آنذاك ، من ذلك قوله في هجاء بعضهم :

يابن البدهاليز وابناء السكك

يابن عجلّ لايجي زوجي يرك (١)

ومما يلحظ في فنه هذا استعانه الشاعر احياناً ببعض مأثورة الثقافي من اشارات الى بعض الآيات او الشعر ، كقوله :

عبيد الله ليس له معاد ولاعقل وليس له سداد

رددت الى الحياة فعدت عنها كقوله الله لوردوا لعادوا (٢)

وقوله :

لحية كثةّ اضّربها النت سف ووجه مشوّه ملعون

قلت لما بدا يجمجم في القو ل ويهذي كأنه مجنون

صدق الله انت من اللـ ـة - مهين ولايكاد يبين (٣)

وقوله:

عمرو العلى بذ الورى في البذل والخلق الحميد

هشم الثريد لقومه والناس في محل شديد

وهشمت انت انوف هـ ـذا الخلق في طلب الثريد

حتى ارتجعت ثريده وسعيت في طلب المزيد (٤)

وعلى الرغم من اعتماد ابن بسام على نفسه في كثر ماوصل الينا من شعره ، فانه قداتكأفي قليل منه على شعر سواه . فقد روى عن جحظو قولة :

(كان ابن بسام يفخر بقوله فيّ :

يامن هجوناه فغنانا انت وحق الله اهجانا

فقلت : هذا معنى لم يسبق اليه خاطر ابن بسام وان كان قد اتى به مطبوعاً وانما أخذه من قول ابن الرومي هجائه شُنطف :

وفي فبحها كافٍ لنا من كيادها ولكنها في فعلها لم تردد .

ولو علمت ماكايدتنا لقبحها بأنفاسها والوجه والطبل واليد) (٥)

١ - تقدم ان الشاعر لم يكن على حق في هجاء والده الذي اتهمه بالبخل وقله المروكة

٢ - معجم الشعراء ١٥٤

وجاء في ديوان المعاني :

(قال علي بن الخليل :

لاأظلم الليل ولاادّعي ان نجوم الليل ليست تغول

ليلي كما شاءت قصير اذا جاءت وأن صننت فليلي طويل

فأغار عليه ابن بسام فقال :

لاأظلم الليل ولا ادّعي ان نجوم الليل ليست تغور

ليلي كما شاءت فان لم تزر طال ، وان زارت فليلي قصير

الاّ ان بيته الثاني احسن تقسيماً من بيت الخليل)[1]

وواضح ان هذا المثال ليس في الهجاء وانما هو في الغزل .

ومما يسترعي النظر ان شعر الرجل - كما تقدم - يكاد يكون مطبوعاً ليس في فن الهجاء وحده وانما في سائر الفنون الأخرى ، مما حمل الناس كما ذكرنا على حفظه والاعجاب به . وكان بعض غزله لرقته ولطافته وخفته يغني كقوله الذي غنى به في حضرة احد الخلفاء :

حرمت بذل نوالك واسواء تامن فعالك

لما ملكت وصالي ايستني من وصالك[2]

١ - انظر بقية الشعر في ثمار القعوب ٢٧٠

٢ - مروج الذهب ٤ / ٢١٠ اشارة الى قوله تعالى : (بل بدالهم مساكانوا يخفون من قبل ولودروا لعادو لما نهوا عنه وانهم لكاذبون) الانعام / ٢٨

٣ - مروج الذهب ٤ / ٢١١ ، يشير الى قوله تعالى : (ام انا خير من هذا الذي هو مهين ولايكاد يبين) الزخرف /٥٢

وانظر مثل هذا ايضاً : محاضرات الادباء ٢ / ٣٩٢ والتمثيل والمحاضرة (٢٠)

٤ - حماسة الظرفاء ٢ / ١٧٤ . البيتان الاولان أشارة الى قول ابن الزبعري

عمر والذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

وانظر نموذجاً آخر في لطائف المعارف ٥١

٥ - معجم الادباء ١٤ / ١٤٦ ، وانظر : ديوان ابن الرومي ٧٣٦ وهامن جملة خمسة ابيات ، وللقافية في الديوان مضمونة مع اختلاف في بعض الالفاظ ، وانظر مثل هذا ايضاً : انوار الربيع ٢ / ٣٧٢ - ٣٧٣

ونرى ان نختم الحديث عن سمات شعر ابن بسام وخصائصه بخصيصة تكاد تطبع شعره عامة وهي الجراة المتناهية ، والصراحة التي مابعدها صراحة حتى ليخيل الى من يقرأ شعره ان الرجل كان يعمد الى هذا عمداً ، غير مبالٍ بما سيلحقه من اذى ، او يتعرض له من اخطار ، وكثيراً ماكان يحضرني في وانا انظر في شعره قوله المتنبي :

واقدمت اقدام الأتي كأنّ لي سوى مهجتي اوكان لي عندها وتر[٢]

١ - الاغاني ٢٣ / ٧٦

٢ - ديوان المتنبي ٢ / ٢٥٣ (طبعة البرقوقي) .